

مخاضات ناتج الأستلامية

تأليف المؤلف
السيد محمد الحصري بك، القسّس بوزارة المعارف
ومدرّس ناتج الأستلامية بالجامعة المصرية

المجلد الثاني

يطلب من الناشرية القارية الكبرى بأول شارع محمد علي بصر
إصاها، مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٤ هجرية

(جميع الحقوق محفوظة)

مطبعة ايد شقاعة
بشارع النهضة رقم ١٨ بجنتين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح في بلاد الروم - فتح حمص - فتح بيت المقدس

الفتوح في بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك في أول خلافة عمر في أثنائها جاء الخبر بموت أبي بكر واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة إمرة الجيش بكاه والقواد كلهم تحت إمرته بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو لخل^(١) من أرض الأردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد وهنا التقت المقتان فاهزم الروم ودخلت المسلمون لخل وسار الروم إلى دمشق فكانت لخل في ذى القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا إلى دمشق^(٢) وخالد على المقدمة فحصروها ونزلوا حولها فكان أبو عبيدة على الناس فأخذوا موافقهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقى مما بقى باب خالد مقاتل إلا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامى والمجانبق وهم معتصمون بالمدينة يرجون النجاة ولما أيقنوا أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا وهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعا بهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه شيء من أمر العدو عيونهم زكية وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالا كهشة السلايم وأرهاقا فبلغه ذات ليلة أن الناس غافلون في فرح لعظيمهم فنهذ بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وأمثاله وقال للجند إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا الباب فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم

(١) من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين

(٢) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الإسلامية في عهد الدولة الأموية

القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم ومكان تسلق فيها القمعاق ورجل آخر ثم لم يدعأ أحبولة إلا أثبتاها والاهواق بالشرف وكان المكان الذي اقتحموا منه أحسن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشد مدخل وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أو دنا من الباب حتى إذا استتوا على السور حذر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحصى ذلك المكان لمن يرتقى وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهت المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر الذي أراد غوة أرز من أفكت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم ينفجأهم إلا وهم ييوجون لهم بالصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد غوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا واتها با وهذا صلحا وتسكينا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحا وكان صلحا على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحا وبعد أن تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً به

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجندان متقابلين وفي الصباح رأوا الأرض خلوا من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعملوا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد باغ يزيدي بن أبي سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج إليه محارباً وبينما هما يتحاربان قدم خالد فأصاب الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيدي إلى دمشق وعاد خالد إلى أبي عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جند شنس إلى حمص

فتح حمص^(١)

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم إلى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة (١) بلد قديم في شمال دمشق بينها وبين حلب في نصف الطريق

محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصيبهم شيء تراجعوا إلى الصلح فصالحوا على مثل صلح أهل دمشق

ثم أرسل خالداً إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر^(١) زحف إليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فمزقهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربهم فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبابكره وكان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثني بن حارثة إنني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما خشيت أن يוכלوا إليهما : ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا فنظروا في أمرهم وذكروا ما أتى أهل حصن فصالحوه على صلح حصن ثم فتحت قيسارية^(٢) على يد معاوية بن أبي سفيان وفتحت أجنادين^(٣) على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبيون وهو أدهى الروم وأبعد ما غوراً وأنكاهم فعلا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبيون الروم بأرطبيون العرب فانظروا عم تنفرج . أقام عمرو على أجنادين لاية دبر ابن الأارطبيون على سقطة ولا تشفيه الرسل فولى بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصوه حتى عرف ما أراد وقال أرطبيون في نفسه والله إن هذا لعمر وأوانه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب الفوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرساً فسأزه بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فإذا مرتبك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاته ويشهدنا أموره فأرجع فأتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والامير وإن لم يروه رددتهم إلى ما منهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلاً فسأزه وقال اذهب إلى فلان وردّه إلى فرجع إليه الرجل وقال لعمر واذهب لجن بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومى بأنه

(١) مكان بالقرب من حلب يدعى حاضر حلب كان يجمع أصنافاً من العرب

(٢) بلدة على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام

وكانت قديماً من أمهات المدن (٣) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين

قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهى الخلق (١) ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه فالتقوا بأجناده فقاتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم إن أرطبون انهزم من الناس فأوى إلى إيليا ونزل عمرو أجناده

فتح بيت المقدس

كانت إيلياء عاصمة الدين فقيها البيت المقدس وخدام الدين وكان المتولى لأمر حربهم عمرو بن العاص لأنه ولي على فلسطين وإيليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون المتولى لعقده عمر بن الخطاب فكتب إليه عمرو بذلك فسار إلى الشام وهي أول خروجه وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجارية فلفوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الدياج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما لفتم عن رأيكم إياي تستقبلون في هذا الرى وإنما شيعتم منذ سنتين سرع مانت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المتنين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا يا أمير المؤمنين إنها يلامقة وإن علينا السلاح قال فنعم إذا وركب حتى دخل الجاية و عمرو و شرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءت رسل أهل إيليا يطلبون السلام فسالهم وكتب لهم كتاباً هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا ما أمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى

(١) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق وإلا كانت دليلاً على بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركاً جنده من غير راع لهم خصوصاً إذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص

بيدهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى يديهم وصلبهم حتى يباغوا مآمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية (شهد على ذلك خالد ابن الوليد وعمر بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وجضر سنة ١٥ وبعد أن أعطاهم الأمان شخص إلى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القمامة وحان وقت الصلاة فقال للبرك أريد الصلاة فقال له صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً فلما قضى صلاته قال للبرك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعاً أبني فيه مسجداً فقال على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردماء كثيراً فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال الحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام بعد أن قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين إحداهما الرملة والأخرى قصبها إيلياء - ومما يزيد المسلم شرفاً تلك المعاملة الباهرة التي عامل بها سلفه مغلوبهم من الوفاء والعدل فإذا قارن ذلك بما أصيب به أهل إيلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفي سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية ، خرج معه المهاجرون والأنصار فسار حتى إذا نزل بسرغ^(١) لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع إلى المهاجرين الأولين قال لجمعهم له فاستشارهم فاختلفوا فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وماعنده ولا ترى أن يصدقك عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل إنه لبلاء وفداء ما ترى أن تقدم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني . ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الأنصار لجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأماً سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيرة وتبوك من منازل حاج الشام

ثم قال اجمع لي مهاجرة الفتح من قریش لجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالاس فإنه بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس اصرخ في الناس فقل إن أمير المؤمنين يقول لكم إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال أيها الاس إني راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله قال فرارا من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان إحداهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا بأبأ عبيدة ثم خلا به بتاحية دون الناس فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبدالرحمن بن عوف وكان متخلفا عن الناس لم يشهدهم بالامس فلما أخبر الخبر قال عندي من هذا دلم قال عمر فأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سمعتم بهذا الوباء بيلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه لا يخرجنكم إلا ذلك فقال عمر فله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمى طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وأشرف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجنّبوا منه في الجبال فخرج وخرج الناس فنتزعوا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر في أمر الناس بعد هذا المصاب
فسار حتى أتى الشام فنظر في أمور الناس وولى الولاية وورث الأحياء من الأموات ثم
خطبهم خطبة قال فيها (ألا وإنى قد وليت عليكم وتضيت الذى على فى الذى ولائى الله من
أمركم إلى أن قال - فمن علم شئ يذبحى العمل به فباغنا عمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله)
وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فأتى أحد كان أدرك
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء
وبكى من لم يدركه يبكاؤهم لذكره صلى الله عليه وسلم ثم رجع عمر إلى المدينة

وفي عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمي :

ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص في محاضراتنا أحببنا أن نرجع تفاصيل فتحها إلى الوقت الذي تتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقا

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب في مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوها وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام. أدبرت البلاد على مقتضى العدل الإسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد زال عنهم جروت الملوك وعسف الجبابرة

ولما كانت حياة عمر بمنازة بما كان فيها مما جعل بعد أساسا عظيما لكثير من المدنية الإسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملة لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأشيا في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبي بكر الصديق

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء — سيرة عمر في عماله — معاملة عمر للرعية —
عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصيحة —
رأى عمر في الاجتماعات — وصفه وبيته

القضاء

عمر أول خليفة عين قضاء لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين للكوفة شريح بن الحرث الكندي وكان من كبار النابعين وقد أقام قاضيا بها ٧٥ سنة لم يعطل فيها إلا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولي الحجاج استعفاه فأعفاه . ومن طرفه في القضاء أن عدى بن أرطاة دخل عليه فقال إني رجل من أهل الشام قال من مكان سميت قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أم لك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت . وهو الذي قال : حين تزوج امرأة من بني تميم ثم نقم عليها شيئا فضربها

رأيت رجلا يضربون نساءه • فشلت يميني يوم أضرب زينبا
أضربها من غير ذنب أنت به • فما العدل متى ضرب من ليس مذنباً
فزيلب شمس والنساء كواكب • إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

توفي سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبي العاص السهمي حسبما جاء بكتاب القضاء الذين
ولوا مصر فهو أول قاض قضى بها في الإسلام
وولي أبا الدرداء المدينة وهو من الصحابة : ومن أعراف من ولام أبو موسى الأشعري
ولما كان العهد الذي ولاه به مما يبين لنا شيئاً من نظام القضاء وأصوله • أحببنا
إيراده وودنكوه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعد
فإن القضاء فريضة ^(١) محكمة وسنة متبعة فافهم ^(٢) إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق
لا نفاذه : آس ^(٣) بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك
ولا يأس ضعيف من عدلك البيعة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح ^(٤) جائز
بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً : لا يمنحك ^(٥) قضاء قضيتك اليوم

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضى بها وهي لا تعدو ما حذره الله
وهذا ما أشار إليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسول الله وسار عليه وهو ما أشار إليه
بالسنة المتبعة (٢) يريد أن من يدلى بحججه مهما يكن مصيباً بليغاً فإن كلامه لا ينفعه
إذا لم يكن لكلامه نفاذ إلى قلب القاضى وذلك لا يكون إلا بالنزاهة لما يقال من الخصوم
(٣) هذا أساس المساواة التي بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضى
إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فنشأت الغالة فيه وإن نحا من مغبتها اليوم فإنه ليس
بناج غداً (٤) تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام
لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فإنه لا يملك
حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور

(٥) يريد بذلك أن القاضى لا يتقيد بما فهمه من النصوص لحكم به في قضيتك فإذا
ظهر له وجه الخطأ كان عليه أن يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا

فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماهى في الباطل : الفهم الفهم ^(١) فيما تلجأ في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الاشياء والامثال قس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل ^(٢) لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه فإن أحضر بينة وإلا استحلكت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون ^(٣) عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظليناً في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان : وإياك ^(٤) والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتكر عند الخصومات فإن الحق في موطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس.

وإنما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم في حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك على ما قضيا وهذا على ما نقضى

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من أجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضى أن يكون عارفاً بأسرار التشريع حتى يمكنه هذا الإلحاق ومن ذلك يذبح اشتراط أن يكون مجتهداً لأمثلة غيره في تفسير أو تأويل (٢) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذي ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه

(٣) يشير بذلك إلى أصل عام وهو أن الأصل في الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الأول الجلد في الحد ويظهر أنه يريد بذلك حد القذف لأن الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . الثاني المجرب عليه شهادة الزور . الثالث الظنين في الولاء أو النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم أو يكون لهم نسب في قبيلته فينتسب إلى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون في زمننا كذلك

(٤) يشير بذلك إلى ما يجب على القاضى من الأناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لثقاتهم أو ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل إنسان حرية في الدفاع عن نفسه

وماتخاق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله فما ظنك بثواب غير الله
في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام
وهذا الكتاب اتخذته جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظاماتهم القضائية
وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء فزهمهم إلا سهلاً مجرداً عن النظامات الوضعية وكان للقاضي
الكلمة العليا في قضاياها أعني أنه مستقل تمام الاستقلال في قضائه لا يمنعه شيء أن
يحضر إلى مجلسه الأمير فمن دونه
سيرة عمر في عماله

كان عمر بن يشترى رضا العامة بمصاحبة الأمراء فكان الوالي في نظره فرداً من
الأفراد يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس
لا يعدله شيء من أخلاقه إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف
الشاكى والمشكو منه يسوى بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل
اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله
وسواس الأمم على اختلاف في ذلك فهم من لم ير القصاص من العمال يرى ذلك
أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي
يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لا يقيد من عماله
ولعل ذلك لما كان في عهده من الاضطراب في الجزيرة العربية أما عمر فكان على
غير ذلك الرأي لأن مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والأمر قد استقر فلم يكن
هناك ما يدعو إلى مراعاة هذه السياسة

كان إذا بعث عاملاً على عمل يقول اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا
أبشارهم من ظله أميره فلا إمرة عليه دوني . وخطب الناس يوم الجمعة فقال اللهم
أشهدك على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعبدوا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن
يقسموا بينهم فيأثم وأن يعدلوا فإن أشكل عليهم شيء رفعوه لي : وكان إذا استعمل
العمال خرج معهم يشيهم فيقول إني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم
على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم
بالحق وتقسموا بينهم بالعدل وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا لتجلدوا

العرب فتدلوها ولا تجمهروها فتتوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأفلوا
 الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم : وخطب مرة فقال أيها الناس
 إني والله ما أرسل عمالا يضربوا أبشاركم ولا يأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم ليعلموكم
 دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلىّ فوالذي نفس عمر بيده
 لا أقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرايتك إن كان رجل من
 أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه قال أي والذي نفس عمر
 بيده إذا لا أقصنه منه وكبف لا أقصنه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ألا لا تضربوا
 المسلمين فتدلوهم ولا تجمهرهم فتفتنهم ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم
 الغياض فتضيعهم . وكان للأصول إلى ما يريد من عمله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في
 الموسم ، موسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلة هناك فليرفعها وإذا ذاك يحق
 عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد إلى المظلوم ظلامته إن كانت وكان العمال
 يخافون أن يفتضحوا على رؤس الأشهاد في موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أي إنسان
 وقد استحضر عمر إليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية
 قدمت إليه من بعض الأفراد فقد استحضر سعد بن أبي وقاص وهو فاتح القادسية
 والمدائن ومصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة لجمع بينه وبينهم
 فوجده بريثا . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة والمغيرة من الصحابة
 ومن ذوى الأثر الصالح في الفتوح الإسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد
 اتهمه بتهمة شنيعة فوجه إليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كفه القليلة أن عول
 وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرا فسلم ما في
 يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه
 عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذي فرضه الله لثلهم : وشكى إليه عمار بن ياسر وكان أميرا
 على الكوفة وهو من السابقين الأولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمر ولا يحتمل
 ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال
 قائلهم إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل منهم إنه لا يدري علام استعمل فاخبره
 عمر في ذلك اختبارا يدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يحسن الإجابة في بعضه فمزله عنهم
 ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتني وقد ساءتني

حين عزلتني فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى (ونريد أن
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين)
ولم يمض عامل زمن عمر موثقاً به من عمر في كل أيامه إلا القليلين وفي مقدمتهم
أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتصر آثار العمال فيرسله إلى كل شكوى
ليحققها في البلد الذي حصلت فيه وكان ذلك العمل موجهاً إلى محمد بن مسلمة الذي كان يثق به
عمر ثقة تامة وكان محلاً لك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سريعاً
وإنما كان يسأل من يريد سؤاله عن سؤاله وعلى ملائمة من الأشهاد ولم يكن هناك محل التأخير
في أنفس الشهود لأن يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل إنسان الحق أن يرفع إليه شكواه
مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم
يفعل هذا الفعل إلا قليلاً وربما وجد هذا العمل مجالاً لا لتقادم الوجهة النظرية الدينية
ولكن عمر كان يعرف من عماله من يستحق أن تقع به تلك العقوبة إذ ماذا يعمل برجل
ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته
ما بافتها : لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك
ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة . ولي عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال
فقال عمر ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال
معهك في هذا الوجه فصيره في بيت المال : وكانت التجارة هي التكاثر التي يتكئ عليها
بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يتمتعهم عن التجارة منعاً باتاً وعلى الجملة فشدة عمر
على عماله رفعت الرعية

معاملته الرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رافته ورفته على عامة الناس من
رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسؤولية عظيمة فكان يقول لو أن جملاً
هالك ضياعاً بشط الفرات لحشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبى رأيت
عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقيد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب
فيعطين في أيديهم ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي قال الحسن البصري

قال عمر لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عملهم فلا يرفعونها إليّ وأمامهم فلا يصلون إليّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدداً لا مصار الكبير يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السباحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حزة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار توثرت فقال يا أسلم أني أرى هؤلاء ركباً قصر أ بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهروا حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أذنو قالت ادن بخير أودع فقال ما بالكُم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأي شيء في هذا القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر فقال أي رحمة الله ما يدري عمر بكُم قالت يتولى أمورنا ويغفل هنا فأقبل عليّ فقال انطلق بنا فخرجنا نهروا حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال أحمله عليّ قلت أنا أحمله عنك قال أحمله عليّ مرتين أو ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك لحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهروا حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذري علي وأما أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذالحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعمهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندهما فضل ذلك وقام وقت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً إنك أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولي خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدته هناك إن شاء الله ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مريض السبع فجعلت أقول إن لك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية بصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدموا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأجبت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون

مقصراً بحق من ولي عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم

وأفواكم عليكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفي عمر مهأأ عزنا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف أخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير في المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأنيده : لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس إلا دترته وهي عصا صغيرة كالمنحصره كانت دائما في يده أنى سار وكان الناس يهابونها أكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة

روى الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة خفقتني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أخط الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدي فأنطلق إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك وأعلم أنها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ماذا كرتها قال وأنا مانسيتها فعمر كان مؤدبا حكيما ولعل دترته لم يسلم من خفقتها إلا القلائ من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال إنك أقبلت لانتهاج سلطان الله في الأرض فأجبت أن أعليك أن سلطان الله لا يهابك والذي أغضب عمر منه هو مزاحته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرى منها بدلا

كانت الرعية - مع هذا تنابه مهابة شديدة . روى أسلم أن نفرا من المسلمين كلوا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله مانستطيع أن نديم إليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ولقد اشتدت عليهم حتى خشيت الله وإيم الله لأننا أشد منهم فرقا منهم مني

عفته عن مال المسلمين

كان يحب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده إليهم حبا عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعا وخبا لمن رتع فيه حتى أنه كان يقتر على نفسه تقتيرا ربما وجد مساغا لاعتراض قصار النظر . كان عمر يرى أنه لا ينبغي أن يأكل إلا بما يأكل منه أقل رعيته لا يتجاوز ذلك إلى ما فوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال

ثم يحتاج في قرض من أمين بيت المال فإذا حلّ ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يستد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه ولما رأى بعض الصحابة ما يعانيه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وقالوا لوقلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لا تخبر بهن عمر فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوأهن قالت لاسييل إلى علمهم قال أنت بيني وبينهم ما أفضل ما أقتني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصينا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأى مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه في الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلثة سلكوا طريقاً فمضى الأول لسيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سيله فافضى إليه ثم اتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلحقهما

وكان يتحاشى أن ينتفع أحد من آل بيته بشيء ليس له فيه حق . روى مالك في الموطأ أنه خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق فلما قفلا مراعى إلى موسى الأشعري وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على أمر أنفك كما به ثم قال بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكم ما فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقال وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعاً فأربحاً فلما دفعا ذلك إلى عمر قال أكل الجيش أسلفه قال لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكم ما أديا المال وربحه فأما عبد الله فسكت وأما عبيد الله فقال ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا لونة من هذا المال أو ملك أضمناء فقال عمر أديا فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح

المال قالوا وهو أول قراض في الاسلام . ولما ترك ملك الروم الغزو كاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملك الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبها وأهدت لها وفيها أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد اليه أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال إنه لاخير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذي لها وايسست امرأة الملك بذهبة فتصانع به ولا تحت يدك فتعيك وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنسثيب ونبعث بها لتباع وانصيب شيئا فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد يريدكم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة . وكان إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر إذا نزل به الأمر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لاخير في أمر أبرم من غير شورى وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قرش وغيرهم فما استقر عليهم رأيهم فعل به . ومن قوله في ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم فالتاس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاهم ومن قام بهذا الأمر تبع الأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاهم لجعل أولى الأمر منفذين لما رآه أولو الرأي والناس تبع ما أخذ به الامام من رأى أولى الرأي . وكثيراً ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه . رأى مرة مخالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للنهر حداً لا يتجاوز به الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد

قال الله تعالى (وَأَتَيْنُمُ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويدينون له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافا عن القصد قال مرة في خطبته أيها الناس إن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيفنا فسر ذلك : وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه في سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم

رأى عمر في الاجتماعات

كان عمر يميل إلى أن تكون مجتمعات الناس عامة يهوى إليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأن ذلك يدعوهم إلى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس أن عمر قال للناس من قرش بلغنى أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وإيم الله إن هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكناني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأى فلان قد قسموا الإسلام أقساما أفيضوا بمجالسكم بينكم وتجالسوا معا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس . وفي الحق إن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون اليهم مضيع كثيرا لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيد فائدة كبرى وهى نقل أقوالهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم إن كثرة المجالس تدعو بدران ريب إلى كثرة الاختلاف في المسائل التي تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة في الدين والذي خافه عمر على الناس وعلى من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة من أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس في الدين اختلافا عظيما

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسا بسياسة مقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلا بينهم مسويا بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر من ماله ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع

الشيء في موضعه يشتد حيناً ويلين حيناً حسبما توحى إليه الظروف التي هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم السير فيه فسيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أي إنسان ولذلك نقول إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التي تحتل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها وإلا فآين ذلك الرجل الذي يقنى في مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كالأدنام مع تحمله مشقات الحياة وأتعاها . العربي يستدعي سياسته حكمة عالية فإنك إن اشتدت معه أذلته فهلك وإن كنت معه ليكون رجلاً نافعا لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحرته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تنهك الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون لم يجمعوا صفات عمر التي بجموعها كدوا مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فرمى أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظهر بن بنى جمح من قريش فولدت له عبدالله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين

وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جرويل من خزاعة فأولدها عبيد الله وقد فارقتها في هدنة الحديبية

وتزوج قريظة ابنة أبي أمية من بنى مخزوم وقد فارقتها في الهدنة

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة

وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصم وهذه طلقها

وتزوج أم كلثوم بنت هلي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها

وتزوج لحية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر وتزوج عائكة

بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت الأمر

إليك فقالت أم كلثوم لا حاجة لي فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت

نعم إنه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته

فقال أ كفيك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين بلغنى خبر أعيدك بالله منه قال ما هو قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عنى قال لا واحدة ولكنها حدثت نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما تقدر أن تردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها كنت قد خلعت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك قال فكيف بمائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابها ويمنع خيرها ويدخل عابساً ويخرج عابساً

المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر - عثمان وكيف انتخب - ترجمته - أول قضية نظر فيها كتبه إلى الأمصار - أول خطبة له - الفتوح فى عهده

مقتل عمر

ما كان يظن أن تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتى بهلم الناس أنه ليس فى مكة لإنسان أن يرضى الخاق كافة فإن عمر إذا كان قد أَرْضى العرب بما صنعه لهم وأَرْضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوى الساطان عليهم لأنه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لأنفسهم عبيداً وقد أحضر وأعدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلقون إلى الهرمزان ملك فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لأفضل له على واحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه فيروز ويكنى بأبى لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً فى السوق لقيه ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أهدنى على المغيرة ابن شعبة فإن على خراجا كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمرو ليش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال قد

بلغنى أنك تقول لو أردت أن أهمل رحا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال فاعمل لى رحا قال إن هشت لأعملن لك رحا تبعدك بهامن فى المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدنى العبد آتقا ثم انصرف عمر إلى منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده فى كتاب الله التوراة قال عمر والله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحيثك وإنه قد فنى أجلك وعمر لا يحسّ وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها . ولو صحت هذه الحكاية وكنت بمن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر وأنه كان عالماً بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك لماذا يدعو كعباً إلى إنباء عمر بهذا النبأ والجواب على ذلك سهل فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيماً فإن كثيراً منهم يرون بعد ذلك أن توراتهم فيها علم كل شيء وأنه صادق فى كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة فى تصديقه بما يوحى إليه وكعب هذا بمن أفاض علينا ثروة من الأخبار الإسرائيلية التى لا ندرى حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه .

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر إلى صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال صفوفاً يسقونها فإذا استوت جاءه هوف كبير ودخل أبو لؤلؤة فى الناس فى يده خنجر لله رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداها من تحت سرتة وهى التى قتله وقتل معه كليب بن أبى البكير اللبى وكان خلفه فلما وجد عمر حراً السلاح سقط وقال أفى الناس عبد الرحمن ابن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس وعمر طريق ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبد الله بن عمر وقال اخرج فانظر من قتلنى قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لحمد الله أن لم يقتله رجل يهود الله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والأنصار فيقول لهم أعن ملائمتكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل فى الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول :

فواعدنى كعب ثلاثاً أعدما • ولا شك أن القول ما قال لى كعب وما بى حذار الموت إنى لميت • ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

سم دعى له الطبيب فلم يجد للفضاء حيلة وتوفى ليلة الأربعاء ثلاث ليال بقين من
ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الأربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه حسبا أوصى
بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته وروى أن طعنه
كان يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الأحد صباح هلال
المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة من
متوفى أبي بكر . والصحيح الأول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر
وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت
سنة حين قتل ٦٣ كصاحبه

٣ — عثمان بن عفان

كيف اتخلف

لما طعن عمر وأحسن بالموت طلب إليه أن يمهّد إلى خليفة من بعده فتردّد وقال
إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من
هو خير مني (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال لو كان أبو هبيدة حيا استخلفته
فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة
حيا استخلفته فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن سالما شديد الحب لله فقال له
رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف
استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا في أموركم ما حدثتها فأرغب فيها لأحد
من أهل بيتي إن كان خيرا فقد أصبنا منه وإن كان شرا فشرعنا إلى الله حسب آل
عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد
أجهدت نفسي وحزمت أهلي وإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر لاني لسعيد

ثم كثر عليه القول بعد منية طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد
مقاتلي لكم أن أنظر فأولي رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق
وأشار إلى عمر ثم رأيت أن لا أتحمّل أمركم حيا وميتا عليكم هؤلاء الرهط الذين قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة على وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن
وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير

ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوا أواليا فأحسنوا وأزرتوه وأعينوه إن اتتمن أحداً منكم فلوؤد أمانته ثم دعاه هؤلاء الرهط وقال لهم إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الأجل الذي يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال المقداد بن الأسود إذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم وقال أصيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر وقم على رؤسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤسهما فإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر فأبى الفريقين حكمه فليختاروا رجلاً منهم فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكروا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أباطلحة أن يحجبهم فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كدت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم أجاس في بيتي فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف أياكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال ع: أن فأنا أول راض ثم تابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال أعطني ميثاقاً لنؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا نتخاص ذارحم ولا نألو الأمانة فقال عبد الرحمن أعطوني موافيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذارحم لرحمه ولا آل المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله وبذلك صار الأمر في عني عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه باقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره به عثمان حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدهو إليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير

في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان فقال له خل ابني عبد مناف وهذا الامر فقال الزبير نصيبي لعلني : وقال لسعد أنا وأنت كلاله فاجعل نصيبك لي فاختر قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلي أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا إسحق إنني خلعت نفسي منها على أن أختار ولولم أفعل وجعل الخيار إلي لم أرد ما ثم قال لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى علي فجاء فناداه طويلاً ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناداه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى التجع المسجد بأهله فقال أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدئين آراء لهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن إنني قد نظرت وشاورت فلا تجعل أيها الرهط على أنفسكم سيلاً ودعى علياً فقال عليك عهد الله وميثاقه لنعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلني فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك على تأخر وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤

ترجمة عثمان :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي وأمه أزوى بنت كريب بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حياً عفيفاً ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من السابقين الأولين أسلم على يد أبي بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر إليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهدته ولكنه لم يحضر بدرأ خلفه عليه السلام لتقرض رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له

الرسول في غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى وكان له في جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاًؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما توفي عليه السلام كان لأبي بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار في مهام الأمور : ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ - فبراير سنة ٦٤٤ م)

أول قضية نظريتها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركرا في دمه فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي فلما رهنقهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فانظروا بأى شيء قتل لجاؤا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فإذا هو على الصفة التى وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأنى الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل إليه من أتى به وأخذ منه السيف وبجته حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر في أمره فلما بويع عثمان جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والأنصار أشيروا على في هذا الذى فتق في الإسلام ما فتق فقال على أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعانك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان بل إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وإيهم قد جعلنا دية واحتملناها حتى مالى وكان ذلك حلاً حسناً لتلك المشكلة.

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار

كتب عثمان إلى أمراء الأمصار كتاباً عاماً هذه صورته (أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جبابرة وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جبابرة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جبابرة ولا يصيروا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تقاتلون فاستفتحوا عليهم بالوفاء) وكتب إلى أمراء الأجناد بالثغور (أما بعد فإنكم حماة الإسلام وذاتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملائنا ولا يباقي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه)

وكتب إلى عمال الخراج (أما بعد فإن الله خالق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق. خذوا الحق وأعطوا الحق به والأمانة الأمانة قوموا هايتها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تأخذوا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم)

وكتب إلى الأئمة من المسلمين بالأمصار (أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتكم بالاقتداء والاتباع فلا تفتكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا)

أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعته أرصد المنبر لحمد الله وأثنى عليه ثم قال (إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتكم صبحتم أو أمسيتم ألا وإن الدنيا طوبت على الغرور فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم .

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعصروها ومتعوا بها طويلا ألم تلاحظهم ارموا
بالدنيا حيث رضى الله وأطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا والذي هو خير
فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات
الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا : المال والبنون
زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)
الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عثمان هذه

- (١) مكة وأميرها نافع بن الحارث الخزاعي
- (٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي
- (٣) صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف
- (٤) الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة
- (٥) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي وهذه الخمس في الجزيرة
العربية (٦) الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبه الثقفي
- (٧) البصرة وما يتبعها وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري وهاتان بالعراق
- (٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي
- (٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام
- (١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي

الفتوح في عهد عثمان

كانت مغازي أهل الكوفة الرى وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل
الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالرى وكان بالكوفة إذذاك أربعون
ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه
في كل أربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الإسلامى في تلك البلاد
والمحافظة على الثغور من أن يتناهبها عدو وإعادة من شق العصا إلى الطاعة ففي عهد
إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه
فنزاهما الوليد حتى رضيت بأن تودى ما كانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة
الباهلي إلى أرمينية فشنت شمل المجتمعين بها من أراد نقض الطاعة

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان ^(١) سار إليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا علي والعبادلة أبناء عباس وعمر وعمر بن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح

وفي سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر ^(٢) حتى وصل بلنجر وهي أكبر مدنها خلف باب الأبواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمهم الكبير فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة واهزم المسلمون ففرقوا فرقتين فرقة عادت فقاتلت سلمان بن ربيعة الذي كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل على ثغر الباب بعد عبد الرحمن أخوه سلمان

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثر السند ففي عهد إمارة عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار إليهم عامر وأوقع بهم رقعة شديدة وفي عهد إمارة ابن عامر هلى البصرة قتل يزيد جرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية

وفي سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج إليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطابسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار إلى قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان ^(٣) ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار إلى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب إلى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الروم

(١) بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الري وقرمس والبحر وبلاد الديلم والجل (٢) هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند (٣) ولاية واسعة من نواحي خراسان وهي طخارستان العليا والسفلى فالعيا شرق بلخ وغربي نهر جيحون وبيضا وبين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربي جيحون أيضا إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا وأكبر مدينة بطخارستان : طالقان

فبلغ عمورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فسار حتى أتى قالقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفلّيس ^(١)

وفي سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما يمتحن غزو الروم في البحر إلا أن عمر كان يمنعه من ذلك لأنه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين كتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه فكتب إليه عمرو (إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خاق صغير إن ركن خرق القلوب وانتمرك أزاع العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجح برق) فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية لا والذي بعث محمداً بالحق لأأجل فيه مسلماً أبداً

فلما كان زمن عثمان أذن له في ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم فمن اختار الغزو طامعاً فاحمله وأعنه ففعل وسار إلى قبرس وأمدّه من مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحا على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها إلا بمنعهم المسلمون من ذلك وإيس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من وراثتهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم

وقد رتب معاوية أمر الغزو في البحر وأعد لذلك أسطولاً جعل أميره عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ولكنه خرج في يوم طليعة في قارب فأنهى إلى المرقى من أرض الروم فنذر به فتكاثروا عليه وقتلوه

وأما في مصر ففي عهد عمرو بن العاص انتفضت الإسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره إليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار إليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور الإسكندرية واستولى على كثير من مراكب الأسطول وسير عمر وعبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أفريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس

(١) مدينة بأرمينية الأولى وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب

إلى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهى أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا له ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار وفي عهد إمارة عبدالله بن سعد بن أسطول وخارج معاوية بنفسه من الشام بأسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر بأسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضهم ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهمزت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم قانزوم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم ففي عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبدالله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد للحماية الثغور الإسلامية التي كان يشق الروم عليها الإغارة من وقت لآخر

المحاضرة السابعة والعشرون

الأحوال الداخلية والفتن

الأحوال الداخلية

لا بد أن تبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين في الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العاقبة من هذه الأمصار الثلاث روى الطبري عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا يأذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إني سنت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلاً ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد نزل الأول وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا إني قائم دون شعب الحزة آخذ بحلقم قريش وحجزها أن يتهاقوا إلى النار - فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر فأناسحوها في البلاد فلهذا رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع

من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموماً في الناس وصاروا وزاعماً إليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قدامهم وتقدمنا في التقرب والانتفاع إليهم فكان ذلك أول ومن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة وقال الشعبي لم يمض عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد فإن الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو واليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر . وروى الطبري بسنده قال لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع إليهم الناس وكانت قريش بحسب القاعدة التي كانت متبعة كأعضاء الأسرة التي لها الأمر كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوماً ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولا حقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الأسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقاً في الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مرزها أحقاباً طويلة وهم إلى الآن في آلام شديدة من جرائها

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم إذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داهية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه . كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوى الرؤوس النابغة فلا يجدون سبيلاً إلى نزاع أو شر إلى ما وقر في أنفسهم من الالفة الإسلامية ومن أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين الرعية وظل العدل وارف فوق رؤسها

ولى عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لاجل ولما حلّ الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأفاس من الرعية

على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا : يلوم هؤلاء سعدا ويلوم هؤلاء عبدا لله بن مسعود

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين ف عزل سعدا عن إمارة الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على غرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم الوليد كان محببا إلى الناس رفيقا بهم : حدث في رمنه أن شبايا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاءوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي مورع الأسدي وشيل بن أبي الأزدي فحوكوا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطعن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به وكان سمار يسمررون عنده ومنهم أبو زيد الطائي وكان أبو زيد نصرانيا ثم أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى آت أولئك نفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبازيد الخمر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استرعننا بشيء لم تتبع عورته ولم نهك ستره فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال أيرضى من مثلك بأن يجيب قوما موتورين بما أجبت أى شيء أستر به إنما يقال هذا للمريب فلاحيا وافترقا على تفاضب : ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب إلى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان بمن قد عزل الوليد عن الأعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالوا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو بقاء الخمر فقال عثمان ما بقاء الخمر إلا شاربها فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة وأقنى على بوجوب حذو الخذوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولى على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعه أولئك نفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله إنى قد بعثت اليكم وأنا كاره وليكنى لم أجد بدا إذ أمرت أن أأتمر إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها والله لأضربن وجهها أو تعينى وإنى لرائد نفسى اليوم ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب إلى عثمان (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وطلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والمقدمة

والغالب على تلك البلاد روادف ردف وأهرب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاد من نازلتها ولا نابتها : فكتب إليه عثمان (أما بدقة ضل أهل السابقة والقعدة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسبيهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تناقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكل منزلة وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فأرسل سعيد إلى وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام والقادسية فقال لهم أتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبيء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخاص بالقراء والمستمتين لسمره فكانما كانت الكوفة يبساً شملت ناراً فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكانت في بعض الأحيان يجلس للناس جلوساً عاماً ولا يحجب عن مجلسه بأحد فبينما هو ذات يوم في مجلس العامة وهم يتحدثون إذ قال قاتل ما أجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد بن العاص أن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً والله لو أنى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث والله لوددت أن هذا المطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلي الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تمنى له سواداً ثم ثار إليه جماعة من سفهائهم فيهم الاشتهر النعمى وعمير بن ضابيه ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن أن يمنع عنه فضربوهما كليهما في مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك نفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولا هم لهم إلا الواقعة في سعيد ومن ولاء فكتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان بذلك وطلبوا منه إخراج هؤلاء نفر من الكوفة فأمر بنفيهم إلى الشام ليكنوا تحت نظر معاوية بن أبي سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف وأكرههم ثم قال لهم ذات يوم إنكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم السنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتهم مراتبهم وموارثهم وقد بلغنى أنكم نقيتم قريشاً وأن قريشاً لو لم تكن عدتكم أذلة كما كنتم إن أنتمكم لكم إلى اليوم جنة فلا تستدوا عنى جنتكم وإن أنتمكم اليوم يصبرون

لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمداكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم فردوا عليه ردّاً دل على تمكن الفتنة في رؤسهم فردّ عليهم معاوية ردّاً شديداً وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة مه إن هذه ليست بأرض الكوفة والله إن رأى أهل الشام ماتصنعون وأنا أمامهم ماملكت أن أنهام عنكم حق يقتلوكم فلمرى إن صنيكم ليثبه بعضه بعضا وكتب إلى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم إلى حمص عند عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد فأدبهم عبدالرحمن تأديبا شديداً حتى أظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم إلى الكوفة فلما عادوا اشتدّ أمرهم في الواقعة بعثمان وعماله وهؤلاء هم رؤس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الاشتر وثابت بن قيس النخعي وكيل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان العبدى وجنوب بن زهير الغامدى وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحلق الخزاعي : وفي آخر عهد عثمان خرج سعيد إليه ليلفقه أحوال الكوفة ولما أراد العودة خرج إليه أولئك الناس ومن استغفوه وقالوا والله لا يدخلها علينا واليا أبداً ولما علم بذلك عثمان هزله عنهم وولى عليهم أبا موسى الأشعري حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غالب فيها الغرغاء أهل الحلم وضعف سلطان الأمراء ، وقوة الطاعة لم يبق لها في نفوس القوم من أثر

وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للمراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج أهلها على أبي موسى الأشعري عاملهم واستغفوا عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين ولثلاث سنين من إمارته بلغه أن في عبدالقيس رجلاً نازلاً على حكيم بن جبلة وكان حكيم رجلاً لهماً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما يشاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرج من هنا حتى تأنسوا منه رشداً فكان لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يلقى إلى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل

يهودى أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت عن يقول برجمة المسيح ولا يقول برجمة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجبا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم إلى ما يماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الانبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافة فبلغ شئ من خبره عباده ابن عامر فأحضره وسأله من أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك فقال ما يبلغنى ذلك فأخرج عنى فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى مصر وهناك وجد هدهد بعد أن نفث ما نفث بالعراق

أما الأمر في مصر فقد كان أشد مما في العراق فإن ابن سبأ لما جاءها أتى إلى الناس تعالىه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصى وكان على وصى محمد ثم قال محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووئب على وصيه وتناول أمر الأمة ثم قال بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا في هذا الأمر لحركوه وابدؤوا بالطعن على أمريكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعواهم إلى هذا الأمر فبث دعائه وكاتب من كان يستفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم ويكاتبهم لإخوانهم يمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤ أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يدعون فيقول أهل كل مصر إنا لنرى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فأتوا عثمان فقالوا يا أمير المؤمنين يأتيك من الناس الذى يأتينا فقال لا والله ما جاءنى إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث إلى الأمصار من يستقى أخبارها ويعلم علم ما فيها فتدب لذلك رجالا سيرهم إلى الأمصار فسير محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر وفرق رجالا سوام في البلاد الأخرى فأقبل جميعهم

الإعماراً فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم
أما عمار فقد ورد إلى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر
يخبره فيه أنه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا إليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن
ماجيم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر وكان من أشد الماويلين على عثمان بمصر
وجلان : محمد بن أبي حذيفة . وكان الذي دعاه إلى ذلك أنه كان يتجسس في حجر عثمان فكان
عثمان وإلى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين وإلى فقال يا بني لو كنت
رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذني فلا أخرج فلا طلب
ما يفوتني قال اذهب حيث شئت وجوزة من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع إلى مصر
كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية : والثاني : محمد بن أبي بكر وقد كان من الاسلام
بالمحل الذي هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة تلزمه حتى فأخذه عثمان من
ظهوره ولم يدهن فاجتمع هذا إلى هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذبذباً
بعد أن كان محمداً وإنما مال إليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حاقداً على عثمان
فقد قال سعيد بن المسيب إنه كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب كلام
فضربهما عثمان وكان قذفاً

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن الأحوال لما عرف به معاوية من الحزم
والضبط إلا أنه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشجيع على عثمان وعمله
وذلك أن ابن السوداء لما أتى الشام جاء أباً ذر فقال يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية
يقول المال مال الله إلا أن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتججه دون المسلمين ويمحو
اسم المسلمين فأما أبو ذر فقال ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله قال
يرحك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والامر أمره قال فلا
تقله قال فإني لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين ثم أتى ابن السوداء
أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت أظنك يهودياً ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق
به وأتى به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أباً ذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل
يقول يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء . بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها
في سبيل الله بمكاو من نار تسكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فإزال حتى ولع
الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكوا الأغنياء ما يلقون من الناس

فكتب معاوية إلى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز إليه أباذر فأرسله إليه فلما قدم عليه ورأى المجالس في أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال يا أبا ذر على أن أقضى ماعلى وأخذ ماعلى الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعهم إلى الاجتهاد والاقتصاد وكان هذا الرأي الاشتراكي متمكنا من أبي ذر وقد وجد الخليفة أنه رأى فائل فأمر أبا ذر أن يخرج إلى الربذة فيقيم بها ويقال إن أبا ذر هو الذي طلب منه ذلك فسيره وأجرى عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفي أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين إلى الإسلام : أما الحال في المدينة فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبئيون سببا لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشوا القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقدة على عثمان لأسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأى عثمان كثرة الكلام أرسل إلى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعا بالموسم فقدموا عليه عبدالله بن عامر ومعاوية وعبدالله بن سمد وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلا بي فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء لا والله ما صدقوا ولا بؤوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحد أفيقيمك على شيء وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها قال فأشيروا على فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع في السر فيلقى به غير ذى المعرفة فيخبر به فتحدث به في مجالسهم قال فادعوا ذلك قال طالب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبدالله بن سمد خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم وقال معاوية قد وليت فوليت قوما لا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما قال فالرأى قال حسن الأدب قال فما ترى يا عمرو أرى أنك قد لنت لهم ونراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبك قد شئت في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ، إن الشدة تذبغي لمن لا يبالو الناس شرا واللين لمن يخاف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين . فترون

أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لاهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض في أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما أشرت به علي قد سمعت ولكل أمر باب يؤتي منه إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وإن باب الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين والموتاة والمناعبة إلا في حدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدهما فإن سده شيء فرقق فذاك والله ليفتحن وليست لأحد على حجة حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا نفسي ووالله إن رحا الفتنة لدائرة فطوبى لثمان إن مات ولم يحركها كفكفو والناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدنو فيها . ثم رد الأمراء إلى أعمالهم ولم يأمر بشيء مما أشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه إلى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإن كان فيه قطع خيط عني فعرض عليه أن يرسل له جند أقيمون معه بالمدينة المحافظة عليه فأبى وقال لا أقتر على جيران رسول الله الأرزاق بجند يساكنهم وأضييق على أهل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذي دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمراءهم الأمصار فلم يتيألم ذلك ولم ينهض إلا أهل الكوفة خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيداً بالجرعة رذوه واجتمع الناس على أبي موسى الأشعري وأفره عثمان ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج فكتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرسون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتعير في الناس ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بهجيتهم أرسل إليهم رجلين ليعلماهم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان من ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطربا فلما رآهما أوائك القادة ون أخبروهما بما يريدون فقالوا إنا نريد أن تذكر له أشياء قد زرعتها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قترناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأننا حجاج حتى تقدم فنعيط به فنخلعه فإن أبي قتلناه فرجع الرجلان إلى عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم حضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلوه فقال عثمان بل نغفون وقبل ونبصرهم بجهودنا ولا نحدأ أحد حتى يركب حداً أو يبدى كفرأ إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم

قالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تم إلا وإن قدمت بلداً فيه أهل فأتتمت لهذين الأمرين أو كذلك هو قالوا نعم

وقالوا حيث حمى وإنى والله ما حيث حمى قبلى والله ما حموا شيئاً لأحد ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً وانتهروا اصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحو امنها أحداً إلا من ساق درهما ومالى من غير راحلين ومالى من ثاغية ولا راغية وإنى قد وايت وإنى أكثر العرب بعيداً وشاة فالى اليوم شاة ولا بعيد غير بهيرين لحجى ا كذلك هو قالوا اللهم نعم وقالوا كان القرآن كتباً فتركناها إلا واحداً ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء ا كذلك هو قالوا نعم

وقالوا أنى قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكي سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول إلى سيره ورسول رده ا كذلك هو قالوا نعم

وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلمهم وهؤلاء أهل بلد له واقدرولى من قبلى حدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فاستعماله أسامة ا كذلك هو قالوا نعم

وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وإنى إنما نقلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نقل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم ا كذلك هو قالوا نعم . وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم فأما حى فإنه لم يمل منهم على أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما إعطاؤهم فإنى إنما أعطيتهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى الدعاية الكبيرة الرغبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حرم من شحيح ألحين أتيت على أسنان أهل بيتى وقتى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الماحدون ما قالوا وإنى والله ما حلت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم إلا الأخماس ولا يحل لى منها شيء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا يتفلس من مال الله - بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى

وقالوا أعطيت الأرض رجالا وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام افتحت فن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت في الذي يصيبهم ما آفاه الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني . وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كعض من يعطى فيه فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف وأعطى بني عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئا مع ذلك الوفد بل أعادهم إلى أمصارهم فكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه فخرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمئة والالف وأميرهم جميعا الغافقي بن حبيب العكي ولم يجزؤا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا عمرو بن الأصم وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير السعدي وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لأن ضياعه كانت يلدنهم وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب علي وابن أبي حذيفة بينهم : ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذاخشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عاصمتهم بذي المروة واتفقوا جميعا أن يقدموا روادا ليدخلوا المدينة وينظروا هل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجالين فلما دخلا المدينة كلدا عليا وطلحة والزبير وقالوا إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ماجئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبي ذلك عليهم ما فرجع الرائدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا عليا ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن

أهل الكوفة نفر أنوا الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالامر فرد عليهم ردا شديدا وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكرروا راجعين خافرق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوم فلم ينجأ أهل المدينة إلا والنكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن ولزم الناس بيوتهم فأنام على فكلهم وقال ما ردكم بعدد ما بكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا وقال الكريون والبصريون جثا تنصر لإخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم على كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما اتى أهل مصر وقد سرتهم مراحل ثم طرقتهم فخرجنا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزل لنا ثم قالوا لعلي إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا إليه قال والله لا أقوم معكم إلى أن قالوا فلم كتبت إلينا فقال علي والله ما كتبت لكم كتابا فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهجروا الناس) : ثم تركهم علي وخرج من المدينة . ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فمالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يمضى بالله لا إله إلا هو ما كتبت ولا أملاك ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقدينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لا يزال يصلى بهم ثم منعه من الصلاة في المسجد وحصره في داره . وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي بن أبي طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما المراسلات يطلب إليه فيها أن يجتهد في تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك ما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى علي وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطيين وبلغ الأمر أشده ثم تمثل بهذا البيت) (فإن كنت ما كولا فكن خيرا كل وإلا فأدركني ولما أمزق)

وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلي ضلعا في هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدي عما في القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح في مصلحة

المسلمين وقد أدت الحال إلى أن ترك على المدينة رأساً في هذه الفتنة التي نفاً أنه لم يكن في إمكاته قمعها إلا أنه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسي كل مافي النفوس لأن الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ولا يغيب عن الفكر أن رؤوس المسلمين لو كانت متفقة تماماً لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذي أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها قلب السفهاء على الأمر وفعلوا ما فعلوا . لو كان هناك نظر بعيد لرؤوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الاعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرقت كلية المسلمين

استمر الحصار على عثمان واشتد عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل منه إليه شيء إلا خفية وكان عثمان يطال عايم من آن لآخر ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شددوا عليه الحصار لما بلغهم أن جنداً من الأمصار أقبلت لنصر عثمان . وفي أثناء الحصار ولي عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتاباً مطوّلاً يقرؤه على المسلمين في الموسم ويملأهم بما هو فيه فسار ابن عباس أميراً على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأى ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً : دخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبي بكر يريد أ قتله فلم يصنع شيئاً فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبّت على عثمان زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف يدها فتعمدها ونفخ أصابعها فأطعن أصابع يدها ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه وانهبوا مافي البيت وأخرجوا من فيه ثم أتوا بيت المال فاقتموه وأذاخوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثمان عشر ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم

المحاضرة الثامنة والعشرون

أسباب مقتل عثمان — بيت عثمان — على وكيف انتخب —
ترجمته — أول خطبة له — أول أعماله —

إجمال الأسباب التي أدت إلى قتل عثمان

بعد ان أتينا على تفصيل الحوادث التي أدت إلى هذه المفاجعة نقيعها ببيان مجمل لما
يستتج من تلك الحوادث
السبب الاول

مهما كان رؤساء الأمة مختارين بهضم لعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح
العامة فقلما يجد مريد السوء سبيلاً للذنوب والثورات وإذا انصدع شمل القلوب وحلت
الكرامة محل المحبة والتعاضد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب
وعلى هذا كان الحال في المدينة حاضرة الخلافة وجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم
لولاية الامر فإن من يصفح أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة الماولة
في حق عثمان سوا ما في وجهه وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكر وهه حتى كانوا يلقبونه
في بعض الأحيان نذلاً ونعل رجل مصري كان طويل اللحية شبهوه به للعض منه ويقول في
لسان العرب إنهم لم يجدوا فيه عيباً سوى هذا حتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التي كان عثمان
يخطب عليها فكسرها وهي عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات
في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب
التي أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير انظار إلى ما تحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصاً
إذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثاني

كان عثمان معروفاً بخلق الحياء واللين. أما الحياء فقد كان مشهوراً به في جاهليته
وفي إسلامه حتى قال في حقه عليه السلام (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)
وخلق الحياء يحمل صاحبه على الإغضاء عن كثير مما يكره أما اللين فإن الرجل كان
كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك

من استقرأ خطبه وكتبه حتى أن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخل من هذا دعاء الخلق الأول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى في حق نفسه فلا يوجد إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وإن حسن عند الحكماء فإنه لا يحسن أبداً في سياسة الرعية بل لا بد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب تقف بالناس عند الحد اللائق بهم : انظروا إلى ما فعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجرمع المحيطة بعمر ووصل إليه مدلاً بمركزه فإنه خضعه بالدرّة وقال جئت لانهاب سلطان الله في أرضه فأحببت أن أعليك أن سلطان الله لا يهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفاً أرذلة : والخلق لك أن جعله يمنع عن عمل أي تدبير لمعاوية المفسدين الذين رفعوا إليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضرهم من الأحاديث المنفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحدة فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فائخاً باب الفتنة الذي يخيفه : ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيره من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم تلك الخطبة التي تلونها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فازادهم ذلك لإفساداً لا هم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتنفهم الحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه فكلما أعجزهم باب عدلوا إلى غيره

السبب الثالث

ما خالف به عثمان صاحبه عمر في إعلام قريش فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا بإذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا لهم بما حبه إليهم ولكن ترتب عليه ما حذره عمر فإنه قد اجتمع إليهم أناس ممن لا سابقه لهم في الإسلام والتصقوا بهم وتقرؤا إليهم حتى إذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فبه بذلك ذكرهم إلا لئلا إذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً . صحيح أن علياً لم يهجر مصر ولكن جاءه من هو أفس الناس بهرحاً وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها على بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه على فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أولئك هو منهم بسبيل حتى

يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم الأمر الآخرين اجتماع عليه ، لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المنامرين والذي يؤخذ عليهم هو موادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتداد الازمة وعلى مسمع من رؤساء النافرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع

سهولة التأثير في الجماعات متى أتوا من قبل ما يهون وما يحبون وهم في هذه الأحوال لا يصبرون حتى يثبتوا بما باقى عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمونه إن كان مؤلماً ويسرون إن كان ساراً : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم عرباً يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر لجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التي يآلفونها وهي نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسو بهم على بن أبي طالب وصى رسول الله كما كان لكل نبي وصى وأنه من اللازم أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحاً لعلى بن أبي طالب حتى علا به إلى درجة لم يطلبها على لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل إدخاله في القلوب خصوصاً إذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتبع من أصابهم من ولاية عثمان أذى في نفسه أو ماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرباء ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً والذين كانوا يؤيدونه لأغراض في أنفسهم اشتغلوا في الأمر بمهارة فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الأول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ويقولون نحن في عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التي تجتمع عليهم وليس لها يكتبون حجة فقد كانوا يعيون معاوية وهذا ما يوجد عثمان بل ولأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأه أبو بكر ولأه عمر ولم نر من العمال من استمره وثوقاً به من عمر حياته كلها إلا أفراداً قلائل منهم

معاوية بن أبي سفيان فقد كان واليا من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها وكانوا يعيرون عبد الله بن سعد بن أبي سرح لآلانه ظالم أو جائر وإنما لأمر آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فمفعا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان إذا عفأ فإنه أجر على الذنب ستر لا يزول وكانوا يعيرون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو واليا له وكانوا يعيرون سعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وإنما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدتم على ذلك أن أولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيلة لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الأمة . وإذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعه أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعه في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين : ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك إلا أن المسألة ألبت ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يشبهه وما يختلفه إلى غرض من الأغراض . ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصلوه وقاتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان . فالعاقلة منه أن يتعلم ويفهم لأن يحقد على قوم لم تبقى منهم باقية

لا يمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهيجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح : وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوها بأسها بينها

شديداً : وهم في كل زمن كثيرون فما ظلك إن كان سرانها ممن يساعد على فتح باب السر يا غصاته وتهاونه إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيماً وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير

دفن عثمان

من غريب ما فعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن إلا بصعوبة واستتار . خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل وصلى عليه جبير بن مطعم

بيت عثمان

١ - ٢ - تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدت ولداً اسمه عبدالله فمات ثم تزوج بعدها أم كلثوم أختها

٣ - وتزوج فاخنة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبدالله الأصغر فمات

٤ - وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسي فولدت له عمراً وخالداً وأبانا وعمر ومريم

٥ - وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد

٦ - وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبدالملك ومات

٧ - وتزوج رملة بنت شيبه من بني عبدمناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو

٨ - وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم وقد توفي وعنده فاخنة

وأم البنين ورملة ونائلة

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمي على مكة - القاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف - يعلى بن منية

على صنعاء - عبد الله بن ربيعة على الجند - عبد الله بن عامر على البصرة - سعيد بن

العاص على الكوفة - عبد الله بن سعد على مصر - معاوية بن أبي سفيان على الشام

٤ - علي بن أبي طالب

كيف انتخب

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب علي بن أبي طالب مشابهة لما كان عليه

الحال في انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اعلام الصحابة بالمدينة فاختلوا قليلا ثم تابوا إلى الجماعة وأجمع رأيهم على انتخاب أبي بكر وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لانه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته : وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكان عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود في المخالف : أما عند موت عثمان فلم يكن الامر كذلك فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر إلا بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الأمصار التي لم يكن لها اشتراك في الجريمة : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم من كان خارج المدينة ومنهم المرابطون في الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيما بالمدينة

كانت الكلمة العليا في المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء العابثين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من عليّ للخلافة فكلّموه في البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك : ويقول الكوفيون أول من بايعه الاشتري وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلاه في الشورى وان تطلع إلى الخلافة أحد دونه فهما . روى الطبري عن الزهري أنه دعاهما إلى البيعة فتلكا طلحة فقام مالك الاشتري وسل سيفه والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير . وروى أن علياً قال لهما إن أحببنا أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالوا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن لييايعنا وجيء بسعد بن أبي وقاص لييايع فقال له لا أبايح حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس قال خلوا سبيله . وجيء بعبد الله بن عمر لييايع فقال لا أبايح حتى يبايع الناس قال اتنى بحميل قال لا أرى حميلا قال الاشتري خل عني أضرب عنقه : قال عليّ دعوه أنا حميله إنك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً : وتختلف من الأنصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري وعبد ابن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب ابن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان : وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة

وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة لإلّا من فر ولحق بالشام

ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد : ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان عليّ مرافقاً وكان مقبلاً مع الرسول في بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وكان له الشرف العظيم ببياته موضع الرسول ليلة أن ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب المترصدون في وجوده بيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي أمر أن يسلمها لأهلها وبعد الهجرة زوجته عليه السلام بنته فاطمة وحضر كل مشاهدته عليه السلام ما عدا غزوة تبوك فإن الرسول خلفه فيها على أدله وكان له الأثر المحمود والمقام الذي لا يجهل في جميع الغزوات وكان شجاعاً يخوض الغمرات ولا يبالي بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان علي يرى في نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا يعدلون به غيره لماله من شرف القربى والصبر ولكن المسلمين رضوا بأبا بكر للخلافة فلم يبايع إلا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد أبو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم إلا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالامر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشير عمر كثير في الأحكام الشرعية ولما عهد عمر إلى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الأغلبية له إلا أنها لم تصادفه وصرفت عنه إلى عثمان فرضى وباع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتى أن اسمه استعمل للتغريض بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً إن لم تقم معنا لم كتبنا إليك ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحاف على ذلك : ولما انتهى أمر عثمان ببيع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

أول خطبة له

صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه إلى الخير والشر نخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤذك

إلى الجنة إن الله حرم حرماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإن مامن خلفكم الساعة تحذوكم تخففوا تلاحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباداً في عبادته وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض

ولما أراد على الذهاب إلى بيته قال له السبئية فيما قيل
خذها إليك واحذرن أبا حسن . إنا نتمز الأمر لمرار الرسن
صولة أقوام كأسد السفن . بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن . حتى يميزن على غير عن
فقال على وذكر ما كان

إني عجزت عجرة لا أعتذر . سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجز . وأجمع الأمر الشئيت المتأثر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر . أو يتركوني والسلاح يبتدر
ولما تمت البيعة جاء جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشتراطنا إقامة الحدود
وإن هؤلاء القوم قد أشركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال لهم إني لست
أجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء فدثارت
معهم عبادانكم وثابت إليهم أهرا بكم وهم خللكم يسومونكم ماشاءوا فهل ترون موضعاً
لقدره على شيء مما يريدون قالوا لا قال فلا والله فلا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله
إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن هؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط
فيبرح الأرض من أخذها أبداً إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى
ماترون وفرقة مالاترون وفرقة لاترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب
مواقمها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا - واشتد على
قريش وحال بينهم وبين الخروج وإنما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم
وبعضهم يقول والله إن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا

إلى ما قال على أمثل وبعضهم يقول نقضى الذى علينا ولا تؤخره والله إن هلياً لمستغن
برأيه وأمره عناد لا نراه إلا سيكون على قریش أشد من غيره
أول أعمال على

رأى على أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل
الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولاً وابن عباس ثانياً فأبى ذلك إباء
تاماً كأنه قد وقر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصالحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين
وأن الإبقاء على واحد منهم يوماً كاملاً نقص في دينه ولو كان الأمر قاستتب ربايعه
أهل الأمصار لما كان في عزل الولاة شيء لأن الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطاهم
فهو حر في اختيار عماله واسكن هذه السرعة الغربية لم تفهم مع أنه قبل أن يؤخر الحد
على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله

فرق العمال على الأمصار فأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة وعمارة بن شهاب إلى الكوفة
وعبيد بن عباس إلى اليمن وقيس بن سعد بن عباد إلى مصر وسهل بن حنيف إلى الشام
فأما سهل فإنه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام
فقالوا إن كان عثمان بعثك لخيلا بك وإن كان غيره بعثك فارجع قال أو ما سمعتم بالذى
كان . قالوا بلى فرجع إلى على

وأما قيس بن سعد فإنه سار حتى أتى مصر فافترق عليه أهلها ففرقة دخلت في الجماعة
وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتى وقالوا إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن
على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع على ما لم يقدر إخواننا وهم
في ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فإنه سار حتى البصرة وكان أهلها فرقاً كأهل مصر وأما عمارة فإنه
سار حتى إذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان
خرج يدعو إلى الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأمرهم
بدلاً وإن أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن لجمع على
كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمسال
اضطراب الحبل

اضطرب الحبل في جميع الأمصار الكبرى الإسلامية

ففي الشام كان الامير معاوية بن ابي سفيان بن حرب بن امية . كان أميراً على الشام في عهد عمر و عثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع إليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم ير ضراً أن يدخل في بيعته لأسباب (١) أنه يتهم علياً بشيء من أمر عثمان (٢) أنه آوى قتله في جيشه (٣) أنه كان بين الرجاءين نفور أدى إلى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختاراً في بيعه تديجتها إذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه ألبق الإمارة عليهم ولم ير لعل بيعته توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطراراً

أرسل علي إلى معاوية سيرة الجهنى يطلب إليه أن يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية إليه بشيء ولم يجبه حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عيس فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه

من معاوية إلى علي

وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العباسي المدينة في غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل إلى علي فسلمه الطومار فقبضه فلم يجد فيه شيئاً ثم سأل الرسول ما وراءك قال إنني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود قال ممن قال من خيظ نفسك وتركك ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دهمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان ألسنت موتور أكثر عثمان اللهم إني أرى إليك من دم عثمان نجا والله أقله عثمان إلا أن يشاء الله ومن الغريب أن علياً لما أمر الرجل بالرجوع منه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل إني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخاض الرجل إلا بشق الأنفس

أحب الناس أن يعلموا رأي علي في معاوية وانتفاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهل القبلة . أن يجسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس فذهبوا إليه زياد بن حنظلة التميمي فجلس إليه ساعة ثم قال له علي يا زياد .

تيسر فقال لاى شيء قال تغزو الشام فقال زياد الأناة والرفق أمهل
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل على

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجنبك المظالم
نخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا على ابنه محمدا فأعطاه
لواءه وعبا جنده واستخلف على المدينة قثم بن عباس وأقبل على التميؤ والنجهز . وبينما
هو على ذلك إذ فجأه ما هو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة
ومن لف لفهم ولأنهم توجهوا إلى البصرة : وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة
وعثمان محصور قاصدة الحج وأن تبعد عن المدينة في هذه الاوقات وقد علت وهي
بمكة أن عثمان قتل ولأنه قد بويح لعل بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا
نصها (إن الفوغاء من أهل الآه صار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا إن
عاب الفوغاء على هذا المقتول بالامس الارب واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل
أسنانهم قبله ومراضع من مواضع الحى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح
غيرها فتابعهم ونزغ لهم منها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا
وبادروا بالعدوان ونبا قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام
وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق
الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله
لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخاص منه كما يخاص الذهب من خبثه أو الثوب
من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء)

كان بمكة في ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبد الله بن عامر قدم
من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت
كلتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه
ثم ساروا في وجهتهم هذه وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج
معه مروان وسائر بني أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما
علم بقدمهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل على اتدب رجلين هما عمه ابن
ابن حصين وأبو الاسود النخلى ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلوا أسنادا على

عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وآروا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما مالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا هذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه واتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين بمضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس ورأونا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا وقرأت لآخر في كثير من نجوهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) تهض في الإصلاح بمن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا أتنا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكرتها كم عنه ونحضكم على تغييره : ثم سأل طلحة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تباع عليا قال بلى والبيع على عتي وما أستقبل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأى واحد فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه في ميسرة المربد ووقف الآخرون في ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس في معنى ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا بيسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى حجز بينهم الليل وفي غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا إلى أن زال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدهوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصاح فاصطاحوا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فإن كانا قد بايعا كرهما فالأمر أمرهما وإلا فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة

يوم الجمعة فدخل المسجد ونادى يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم ألا كره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتيا طائعين فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قام فقال اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام نخاسة من أيديهم صهيب ابن سنان وأبو أيوب الأنصاري في دقة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة وأخذ بيده صهيب إلى داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب إلى البصرة . وكان علي لما دلم بخبر كعب كتب إلى عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل وإن كنا نريد أن الخلع فلا عذر لها وإن كنا نريد أن غير ذلك نظرنا ونظرنا فلما عاد كعب إلى البصرة وورد الكتاب طلب طاحنة والزبير من عثمان أن يخلي لهم الأمر فلم يفعل فهاجروه وأخذوه وقد أمرت عائشة بأن يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد إلى علي وكان الحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل في نهايتها وقتل معه عدد عظيم من له شركة فدم عثمان ثم نادى منادى الزبير وطاحنة بالبصرة إلا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم لخصي بهم أذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا بأخبارهم إلى أهل الشام وإلى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم به . واستمروا منتظرين ما تأتيهم به الأقدار

روى الطبري عن علقمة بن وقاص الليثي قال لما خرج طاحنة والزبير وعائشة رأيت طاحنة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب باحيتها على زوره فقلت يا أبا محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب باحيتك إلى زورك ألا كرهت شيئاً فاجلس فقال يا علقمة أين نحن يد واحدة على من سوانا صرنا جباين من حديد يطالب به منا به منا إنه إن كان مني في عثمان شيء ليس توبى إلا أن يسفك دمي في طلب دمه قالت فرد محمد بن طاحنة : فإن لك ضيعة وعيالا فالإليك شيء يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحداً يخف في هذا الأمر فأمنعه فاتيت محمد بن طاحنة فقلت له لو أقت فإن حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضييعته قال ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره

المحاضرة التاسعة والعشرون

الجل - صفين

أمر على

لما بلغ عليا مسير من سار إلى البصرة وهو يتها للشم رأى أن يبدأ بهذا الفتى وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربطة بلغه أنهم فاتوه فبعث إلى أهل الكوفة يطلب اليهم أن ينفروا إلى معاونته على المخالفة له . ولما وصات الرسل السكرة جاء الناس إلى أميرهم أبي موسى يستشيرونه في الأمر فقام فيهم خطيباً وكان آخر خطبته أما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جرائم العرب فأغمدوا السيف وأصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآورا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة فتكلمت رسل على وأغلظت لأبي موسى القول ولما كان الحسن بن علي عن أرسل في هذه الوفادة قال لأهل الكوفة يا أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه والله لأن يقيه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيئوا دهورنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسأح الناس وأجابوا ورضوا به وقال لهم الحسن إنى غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظاهر ومن شاء فليخرج في الماء فقفز من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابله الجنود البرية بذي قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا لإخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك ما نريد وإن يلجوا داويناكم بالرفق وبايناكم حتى يبدؤا بظلم ولن ندع أمرافيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله . ثم إن عليا اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال أي أمة ما أشجعك وما أقدمك هذه البلدة قالت أي بني لإصلاح بين الناس : فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاء أخبر أن مقصدهما كصدحائفة فقال لها القعقاع ما هذا الإصلاح قال قتله عثمان فإن هذا إن ترك

كان تركا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن فقال قد قتلنا قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة عنكم اليوم قتلنا ستمائة رجل إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم طلبتم ذاك الذي قلت (حرقوص ابن زهير) ففعله ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تارسين لما تقولون فإن قاتلتهم والذين اعتزلوكم فأديلوهم عليكم فالذي حذرتم قربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحببتم مضروريعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لاهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ولا أرى دواء لهذا الأمر إلا النسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بایعتونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بئار هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا النار بعثه الله في هذه الأمة هزاهز فأثروا الدافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرهنا وإياكم وأيم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها حانزل فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا الفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم أحسنت وأصبت فإن جاء على بمثل ماقلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح . ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلن غداً أحداً أعان علي عثمان بشيء في شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عى أنفسهم . فاجتمع نفر من رؤساء المجليين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا فقال لهم ابن السوداء إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا اتقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغهم للظرف فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما تكرهون فانفقوا على ذلك والناس لا يشعرون . ولما وصل على إلى البصرة بعث إلى القوم إن كنتم على ما فارقتم القعقاع خكفوا وأقرونا نزل وتنظر في هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشيت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل . قام السبيون في الفلج ووضعوا السلاح في عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ما هذا قالوا

أطرقنا أهل الكوفة ليلاً فقال قد فلنا أن علينا غير مته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه وأنه لن يطاوعنا وسأل على عن الخبر وكان السبيون قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ما جئنا إلا وقوم منهم يبتونا فرددناهم من حيث جاؤا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال على قد علمت أن طلحة والزبير غير متين حتى يسفكا الدماء ويستعلا الحرمه وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان في ذلك الوقت بداً من القتال وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فإنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعاً دينياً وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بحمل عائشة حتى لا تصاب بشراً فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول :

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل نعى ابن عفان بأطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل ردوا علينا شيخنا ثم بهل
ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمه أبداً وفيهم عين تطرف نادى أعزوا الجمل لجاء الجمل لإنسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفل يمارى فيه من النبل لجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فقطعا مرضة الرجل واحتملا الهودج فتجياهما من القتلى وخرج بها محمد حتى دخلها البصرة : وقد ترك الناس والضدف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو ابن جرموز فأتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافله فقتله
قتل في هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (و كاد يقتل ابنه عبد الله) وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب

وبعد أن انتهت الواقعة مرّ على بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً . وبعد ذلك زار عائشة في البيت الذي نزلت فيه فسلم عليها . فقد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة لجهازت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودّدها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها إنه والله ما كان بيني وبين على في القديم إلا

ما يكون بين المرأة وأحائها وأنه عندى على معتق من الاختيار وقال على أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بينى وبينها إلا ذلك وأنها الزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغزوة رجب سنة ٣٦ وشيعها على أميالا وسرح بنيه معها يوماً

بعد انتهاء الموقعة أخذ على بيعة أهل البصرة وأمر عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان

هكذا انتهت هذه الموقعة التى سهات على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيمًا مهيبًا لا يمكن أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد تضر الإمام فى إقامته أو اتهم بالهراوة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولاً للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأئمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقةهم وفضاهم ولكنهم يقولون إن الذين إذا أقبلت أشابهت وإذا أدبرت تدينث ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع أحسن مما كان حقيقة أن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأئمة خيراً أعجلوه وأنشؤوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقه من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وأن من الخطأ العظيم أن يستعين على بمثل هذه الفرقة السبئية ويجمعها تأوى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الاتفاق إنما يقع على رؤوسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضيق

المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظاً لأنفسهم على أن يجرد وجودهم في جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وإن كان هو ينكر ذلك إنكاراً تاماً وهو عندنا الصادق في قوله والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفي لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والالانة ما يعيد الخارج عليه إلى حظيرته والكي لا يكون إلا آخر الدواء

أمر صفين

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وأفظح أمراً وهو الحرب في صفين

انصرف على من البصرة إلى الكوفة فاختر جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولا إلى معاوية بن أبي سفيان يطالب إليه البيعة فشخص جرير إلى دمشق وأنهى إلى معاوية ما جاء له فسا طله واستنظره : وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أوتفى أرواحهم والشام يجمع أجناد المسلمين لأنها ثمر عظم يجاور الامة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء من قوتها فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد . عاشرهم معارفة طويلاً وهو الرجل السياسى المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا أطوع أمره ما أمرهم اتتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة على ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آوأم إلى جيشه ولم يعمل أى عمل فى القصاص منهم فجاء جرير هلياً وأخبره بمأ عليه أهل الشام فلم ير على إلا المسير والقتال . خرج فمسكر بالنخلة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فخرج إليه بأهل الشام أخذ على بجنوده طريق الجزيرة وعبء المرات من الرقة . هاك قدم طلائمه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم اتفقوا بطلائع معارفة فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود على ومعاوية فمسكرت الطائفتان فى سهل صفين وتواقفت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معارفة يطلبون إليه الطاعة وهم بشير بن عمرو

الانصارى وسعيد بن قيس الحمداني وشيث بن ربيع التميمي فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك وإني أشهدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال إن صاحبي ليس منك إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقراءة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا ؟ قال يأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك قال معاوية ونظلم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شيث فقال يا معاوية إنني قد فهمت ما رددت : إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب إليك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقدماء لمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ورب متعنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتعنى أمينته وفوق أمينته والله مالك في واحدة منهما خيرائن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً في ذلك وابن أصبت وما تمنى لا أصيبه حتى تستحل من ربك صلى الله فأتى الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أمه : ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد شديد وأمره بإيأهم بالانصراف فأتوا علياً وأخبروه بالخبر كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثاهل من جيش أهل الشام فيقتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً في الصالح واختلفت بينهما الرسل في ذلك فبعث على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وزيد بن خصفة وشيث بن ربيع وهو أحد الرسل في المرة الأولى وربما كان حقه سبياً في عدم الجراح لما دخلوا على معاوية بدأ عدى فقال لنا أتيك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين إن ابن عمك سيد المرسلين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فأتته يا معاوية لا يهيك الله وأصحابك يوم مثل الجمل فقال معاوية كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصاحبا هيأت يا عدى كلا والله

إني لا بن حرب ما يقع علي بالشنان وإنك لمن المجلبين علي ابن عفان وإنك لمن قتلته وإنني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيبات ياعدي قد حلت بالساعد الأشد فقال شبت وزيادة أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع ما ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمننا وإياك نفقه - وقال يزيد بن قيس إنا لم نأت إلا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن تنصح لك وأن نذكر ما ظننا إنا لنا عليك به حجة وإنك راجع به إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يامعاوية ولا تخالف عليا فإنا والله مارأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهدي في الدنيا ولا أجمع لحصال الخير كلها منه فقال معاوية أما بعد فإنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فمعناها وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا أستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة فقال له شبت أيسرك يامعاوية أنك إن مكنت من عمار تقتله فقال وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتله بعثمان وأكن كنت قاتله بنائيل مولى عثمان فقال شبت لا تصل إلى عمار حتى تنذر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق ، وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت إليه لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصالح والدعوة شيئا في مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحا أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها وأرسل معاوية إلى علي حبيب ابن مسلمة الفهري وشرحيل ابن السمط ومعن بن يزيد والأخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اهتزل أمر الناس فيكون أمرهم شوري بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم فقال له ما أنت لأمر لك

والعزل وهذا الامر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لترينى بحيث تكره فقال على وما أنت ولوا جليت بخيلك ورجلك لأبقى الله عليك إن أبقيت على أحقره وسواء اذهب فصوب وصعد ما بدا لك وقال شرحبيل بن السمطار كلبتك فلمعمرى ما كلامى إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جراب غير الذى أجبت به فقال على نعم لحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسننا السيرة وعدلا فى الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا عليا ونحن آل رسول الله فغفرتنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لى بايع فأبيت عليهم فقالوا لى بايع فإن الأمة لاترضى إلا بك ولما افإن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يحول الله له سابقة فى الدين ولا سلف صدق فى الإسلام طليق بن طليق حزب من هذه الاحزاب لم يزل لله ورسوله وللسلدين عدواً هو وأبوه حتى دخلا فى الاسلام كارهين فلا غرو إلا خلافتكم معه وانقيادكم معه وتدهون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافتهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً إلا أنى أدعوك إلى كتاب الله وستة نبيه وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين : فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوما فقال لهما لا أقول أنه قتل مظلوما ولا أنه قتل ظالماً قالوا فن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما فحين منه برآء ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول لما انسلخ المحرم أمره على من ينادى إلا إن أمير المؤمنين يقول لكم لاني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنبؤوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدهوتكم اليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيئوا إلى حق ولاني قد نبذت اليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام إلى أمراءهم ورؤسائهم وكتبوا كتابهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش : وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الاربعاء أول صفر سنة ٢٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمين وجهها لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال على لجنده ليلة الاربعاء ثامن صفر حتى متى لا تناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل الخليلي

أصبحت الامة في أمر عجب والملك بمجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف على بجنود أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام
وفي ذلك يوم مشؤم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن .
تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء
وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول
وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى على فشى نحو الميسرة فانكشفت
هند مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومربيه في ذلك الوقت الاشترا النخعي فقال له على
أنت هؤلاء القوم قتل لهم أين فراركم من الموت فلما هب اليهم الاشترا وهيج الناس
لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ولا لجمع
إلا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصغوف معاوية
بين العصر والمغرب ولم يزل الاشترا في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية
يقول أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة

أبت لي هفنى وأبى بلائى وإقداى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى وأخذى الحمد بالثمن الرياح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

فنعنى هذا القول من الفرار : وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر
ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل
ويسمون هذه الليلة ليلة الحرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح
يوم الجمعة أخذ الاشترا يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يده
بالرجال لما رأى من ظفروه . وبيناهم في الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت
على رهوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله هزوجل بيننا
وبينكم من لشغور الشام بعد أهل الشام من لشغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى
أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم على يا عباد الله
امضوا على حثكم وصدقكم فإن معاوية وعمر بن العاص وابن أبى معيط وحبيب
ابن مسلمة وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف

بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبهم رجالا فكانوا شرأطفال وشر رجال ويحكم
انهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها ومارفعوها لكم لإلخديعة ودهاء
ومكيدة فقالوا ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عزوجل فنأبى أن تقبله وقال مسعر
ابن فدكى التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه وإلا ندفعك
برمك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن هفان إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله
عزوجل والله لتفعلنها ولنفعلنها بك : ثم طالبوا منه أن يبعث إلى الاشترا لترك القتال
فأرسل إليه رسولا فقال الاشترا للرسول ليست هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني
فيها عن موقعي إني قد رجوت أن بفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر فأنتهى
إليه حتى ارتفع الريح وعلت الأصوات من قبل الاشترا فقال له القوم والله ما نراك
إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك فقال للرسول
ويحك قل للاشترا أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة
الحرب ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريد فلما ذهب إليه قال له
معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث
منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعمل ما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا
عليه فقال له الأشعث هذا الحق ثم رجع إلى علي فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا
فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الأشعث ومن تابعه وإنا قد رضينا
أبا موسى الأشعري فقال علي قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن وبين
لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر علي للسير
على مارأوا

المحاضرة الثلاثون

عقد التحكيم - نتائج - الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تناقضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضى على علي أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتاباه ولا يجمع بيننا غيره وإن كان الله عز وجل بيننا من فاتمته إلى خاتمته نحى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به ومالم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهرد والمواثق والثقة من الناس أنهما آمان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة وإنا قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمان والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدتهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحببنا أن يؤخرا ذلك أخرنا على تراض منهما وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وإن مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحب فلا يحصرهما فيه إلا من أراد ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً اللهم إنا نستنصرك على من ترون ما فى هذه الصحيفة ، . وبلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين -

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور . وبما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالامة وإنما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الأمر وشيعة معاوية تنصره لأنه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى إليه قتلته

يظهر للتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفسك حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلاً عنه ولماذا ؟ لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الاسلام إلا كرها حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونة قدرأ ولم يكن يسلم لهم إلا مرغماً لأنه لم يجد له أنصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه الناس فيه بالخلافة وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به إنسان ولا ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الامة الإسلامية ومثله لا ينال إلا بالاناة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه أشياء لم ير على أن يتنزل إليها أمام معاوية فانه بدون ريب كان يرى نفسه عظيماً من عظماء قريش لأنه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب وأكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفعة النسبية ثم كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والاثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن علياً لا ينظر إليه بتلك العين التي كان ينظر له

بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وجدأ مامه شبهاً تنفسح له المجال في تلك المناوأة (١) أنه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت أمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئتي ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة علي (٣) أن أول من ندبه للخلافة هم الثأرون على عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه عمى لهم على فعلتهم - كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيلة حتى لا يقع في المذلة والمهان

شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشئ الذي يصح أن يكون قاعدة صالح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلى كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صالح حتى أن رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بأهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولاً أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى بينهم وكلا الأمرين لا يرضى به علي أما قتلة عثمان فلائنه إذا أراد انزعاجهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلائنه لا يترك حقاً قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صالح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخرد ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند علي

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند علي فإن الأشعث ابن قيس خرج بكتاب الصالح يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبي بلال فقرأ عليهم فقال عروة اتحكمون في أمر الله الرجال لا حكم إلا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة

خفيفة فغضب للأشعث قومه من الذين فشى رؤساء بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا
قبل وصفع ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلى صفين وهم متواتون
أجاء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم
ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشائمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج
يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا
فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها مئمة اثنا عشر ألفا
ونادى مناديتهم أن أمير القتال شعث بن ربيعة التميمي (وهذا كان رسول علي إلى معاوية
وكان يتوقع في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو سيد المسلمين وابن
عم سيد المسلمين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبدالله بن الكواء اليشكري والامر
شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فبعث
إليهم علي عبدالله بن عباس وقال له لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتبك في ج
إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقيم من الحكمين وقد
قال الله عز وجل إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بيدهما فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم
فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر
به - أما ما حكم فأمضاه فليس للأبدا أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مائة جلدة وفي
السارق بقطع يده فليس للأبدا أن ينظروا في هذا قال ابن عباس فإن الله عز وجل
يقول يحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أو تجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين
المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين : وقالوا إن هذه الآية بيننا أعدل عندك ابن
العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل
حزبه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا
أو يرجعوا وقبل ذلك مادعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وعلتم
بينكم وبينه المراءعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والمراءعة بين المسلمين
وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ثم جاء علي فوجد ابن عباس
يخاصمهم فقال له اتته عن كلامهم ألم أنك . ثم سألمهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم
يوم صفين فقال أنشدكم الله الست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم علي رأيي ولما

أيتم إلا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن فإن حكما يحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن وإن أيا فتحن من حكمهما براء قالوا له نخبرنا أترأه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا نخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الامة أدخلوا مصركم وحكمكم الله . والخوارج يدعون أنهم قالوا إن التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا إلى الله فبما كنا تبنا نبايعك وإلا فتحن مخالفون فبايعهم على وقال ادخلوا فلتمكث ستة أشهر حتى يجي المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن عليا كان إماما ببيعبيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافراً فإذا يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحيث يكون له ولقومه حقد مقرر في القرآن والحدود المقررة لأمعنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع إن قضى بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصا فالذين معهم ومهادنتهم ادهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لاحكم فيه إلا الله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصح لخلقة المسلمين فلا خلافة لعل ولا حرمة لمن اتبعه فاهم أن يقاتلهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء : فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضا باطلة . . أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شبا في نفس إمامة الإمام أمي منعقدة أم لم تمنعده فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكما للرجال في دين الله وإنما هو تحكيم في صحة وصف يبنى عليه حكم فإن القاضي الذي ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده أولا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبت له الصفقة وجب عليه - كما أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من على شك في إمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء المطالبة بأمر مشكوك في صحته كان هذا باطلا

أيضاً لأن صاحب الحق كبيراً ما يتأكد أن الحق له فإذا رأى من خصمه إنكاراً أو تمسكاً بشبه فإنه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو محكمين يكون حكمهما قاطعاً انزع خصمه . وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تتخرج فرادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستعمل بعضها دماء بعض وصار على عدوان والمتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها إلا غلو في نظارهم وإلا فكيف يقول فعاهم ؟ كانوا بالأمس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ! ويرور أنه خل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد .

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هاني الحارثي ومعههم ابن عباس يهـ إلى بهم وإلى أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا يرجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء وإذا جاء رسول على جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه ما كتب إليك أمير المؤمنين فإن كتبهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه إلا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعلمون أماترون رسول معاوية يحى لا يهلم بما جاء به ويرجع لا يهلم بما يرجع به ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ وأنتم عدى كل يوم ظفان الظنون : وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكماء وبجنا فيما جاء الأجل وهو لإصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألسنتك لم أن عثمان قتل مظلوماً قال أبو موسى أشهد - قال عمرو ألسنتك تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياءه - قال بلى - قال عمرو فإن الله يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً) فأيمنك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت فإن تخوفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة فإن

لك بذلك حجة تقول إنى وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو آخر أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله إن ولي أكرمك كرامة لم بكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنى لو كنت معطيه أفضل قریش أعطيته على بن أبي طالب وأما قولك إن معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لم أكن لأولى معاوية وأدع المهاجرين الأولين وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله عز وجل والكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو إن كنت تحب بيعة ابن عمر فإيمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال إن ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل على أنهما قد اتفقا على خلع المتنازعين واختلفا فى من يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسى فى كل كلام فتقدم أبو موسى لحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نرأ صلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأى ورأى عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو فقام مقامه لحمد الله وأثنى عليه وقال إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنازرا - ويروى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتب صحيفة فيها خلع على ومعاوية وإن المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب فى نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين تذكر الأول لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وإن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئا لأن الذى ثبتته إنما هو حكمه والذى يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتماعا عليه لا ما رضى به أحد الحكيم ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى فى خطابه ببيعة معاوية

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأنه لا يؤدى

إلى نتيجة لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتحى لو وصل إلى ما يريد من أى طريق يسلكه رقيه يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمله إلا أن يصل إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان : قال المغيرة ابن شعبة لبعض من معه من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال يا أبا عبد الله أخبرني عما أسألك عنه كيف نرانا معشر المعتزلة فإننا قد شككنا في الأمر الذى قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن تتأني وتثبت حتى تجتمع الأمة فقال عمرو أراكم بامعشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمرا فقال له أراكم ثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة إلى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن على ليرضى بهذا الحكم الذى تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكيم أن يحكما بهما ورضى به معاوية طبعاً لأن أقل ما فى الحكم أن ليس لعل وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدا فزادت آماله فى أن يكون خليفة المسلمين

رأى على أنه لا بد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فإنه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لأنهم كانوا يظنون أن علياً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه إنسان فقال له إن الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس فى صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فرثبوا من نواحي المسجد يقولون لاحكم إلّا الله وعلى يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب الراسي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال فى آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه البلاد أو إلى بعض هذه المدن منكرين لهذه البدع المضلة ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأبأها ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال هاتوها أمار الله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهر وان وكتب ابن وهب

للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت
شعبة على إليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وبعد هذا
الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وإن أتى الدهر
بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول
الله أما بعد فإن المصيبة تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين
الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أيتهم
إلا ما أردتم فكنت أنا وأتم كما قال أخوهوازن

أمرتهم أمرى بمنعرج الأولى • فلم يستبينوا الرشيد إلا ضحى الغد

فلما صوفى كنت منهم وقد أرى • مكان الهدى أو أتى غير مهتد

وهل أما إلامن غزية إن غوت • غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إن هذين الرجائين الذين اخترتموهما حكيمين قد نبذا القرآن ظهورهما وأحيا
ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه اغير هدى من الله حكما بغير حجة بينة ولا سنة
ماضية ، اختلفا في حكمهما وكلامهما لم يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين
استهزوا وتأهبوا للسير إلى الشام وأصحووا في معسكرهم إن شاء الله يوم الإثنين .
وكتب إلى الخوارج يدعهم إلى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا إليه (أما بعد
فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت
التوبة بغيرنا فيما بيننا وبينك ، إلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين)
فلما فرأ كتابهم أيسر منهم وأراد أن يدعهم ويسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة
ومر هناك كتب إلى ابن عباس يأمره أن يرسل إليه جند البصرة وإلى أمير المدائن
يأمره أن يرسل إليه جندهما فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي . هناك بلغه أن
الناس يولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام
فقاءهم خطيبا وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتأدى الناس يا أمير المؤمنين سر
بنا لما أحببت : بلغ عليا وهو ومقامه بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا
منهم ما سل رسولاً لم جلبه الخبر فقتلوه ولما جاء ذلك الخبر قال الناس يا أمير
المؤمنين علام تدع هؤلاء ورامنا بخلفوتنا في أموالنا وعبائنا سربنا إلى القوم فإذا
فرغنا مما بيننا وبينهم سربنا إلى عدونا من أهل الشام فلم يجد بدأ من موافقتهم ونادى

بالرحيل فلما وصاهم أرسل إليهم أن ادفوا إلينا قلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم
أنا تارككم وكاف عنكم حتى أتى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير
عما أنتم عليه من أمركم فبعثوا إليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع
فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها وهم يسمعون فرفع راية
مع أبي أيوب الأنصاري ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض
فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن
إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قلة إخواننا منكم في سفك دمائكم فانصرف منهم جمع
وخرج إلى على جمع وبقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى
الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه
ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائهم وقال احملوهم
معكم فداووهم فإذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعل الظفر قال للناس
توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبأنا وكلت سيوفنا
وفصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها تصدأ فارجع إلينا نصرنا فاستعدت بأحسن عتتنا ولعل
أمير المؤمنين يزيد في عتتنا عتة من ذلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا : فلما نزل النخيلة أمر
الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطئوا على الجهاد أنفسهم وأن يقولوا زيارة نسايتهم
وأبائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فأقاموا هناك أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا
إلى الرجال من وجوه الناس قليلاً وترك المعسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة
وانكسر عليه رايه في المسير وبعد أيام دعا رؤسائهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم
وما الذي ينظرون فنهض المعلن ومنهم المسكروه وأقامهم من نشط : وهو في كل يوم باقى
عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئاً وصار في جند لا يمر
ولا يحل ضعف ساهل أمامهم في أنفسهم ونضالوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة
التي كادت تستأصلهم

هذه كانت حال أهل العراق مع إمامهم . أما حال أهل الشام مع إمامهم فكانت
على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد العظام
ولذلك كان شأنه دائماً في علو إلى ما كان يستعين به من الحيل
كان مما يهم معاوية أن يستولى على مصر فإنها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم

للاجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح : كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عاياه أهل مصر فلذا تم الأمر لعلي ولي عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعة وكانت رلايته في بدء سنة ٣٦ وكان رجلاً سياسياً خبيراً بالأمور فاستقامت له الأمور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتي قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسألة بن مخلد الانصاري فبعث اليهم قيس إني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم : كان أثقل شيء على معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه على بأهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكتابته معاوية ومنها فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتاباً لا يستبين مراده منه إلا أنه قال له أنا كاف عاك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلذا قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكيدة فكتب له كتاباً آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جملة يئأس منه واستنبط وجه الحيلة في إخراجهم عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل بأخوانكم الذين عنده بخربتي يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء وكانت لعلي جراسيس بالشام فبعثوا اليه الخبر فأنهم قيساً وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتي وهم يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى علي إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم وأعطياتهم وقد عدلت أن هوام مع معاوية فقلت يكايدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ولو أني غزوتهم كانوا لي قرناً وهم أسود العرب فذرتني فأنا أعلم بما أداري منهم - فأبى علي إلا قتالهم . أبى قيس أن يقاتلهم وكتب اليه إن كنت تهمني فأعزاني عن عمك وابعث اليه غيري فمزله وولي على مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين بخيرهم بين أمرين الدخول في طاعته أو الخروج من مصر فبعثوا إليه إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر إلى ما نصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاها خبر معاوية ومن معه من أهل الشام

لعلى وأن علياً ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجتمعوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل لهم سريتين الواحدة تلو الأخرى ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك علياً قال ما ماهر إلا أحد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الأشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب إليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب إليه ذلك العهد الممدود من أحسن ما كتب في العالم : والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان

لم يصل الأشتر إلى مصر بل مات بالفلزم ويقال إنه سم في شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب على إلى محمد بن أبي بكر (أما بعد فقد بلغني ووجدتك من تسريحي الأشتر إلى عملك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازدياداً مني لك في الجدد ولو نزعنا ما تحت يدك من سلطانك لو أيتك ما هو أيسر عليك في المؤنة وأعجب إليك ولاية منه : إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه رضوان فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته)

كان معاوية في ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم إلا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساء لهم قتل عثمان فكتب إلى مسلمة ابن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيهما فكتبوا إليه بخبر من معهما وأنهم يمتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلبوا المدد فجهاز إلى مصر عمرو بن العاص في ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب إلى ابن أبي بكر (أما بعد فتفتح عنى بدمك يا ابن أبي بكر وإني لأحب أن يصيبك مني ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافتك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسددوك لو قد التفت حلفتنا البطان فاخرج منها فإني لك من الناصحين) فكتب محمد إلى علي يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج إليه محمداً في ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحمّلوا هجمة الجنود الشامية ومن مالا هم من جنود مصر فقتل من قتل وفر

الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال إنه أحرقه بالنار بعد ذلك أما على فلم ينجح في إخراج الجنود لإغانة مصر إلا بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا إلا قليلاً حتى بلغ علياً ما كان فأرسل إليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبي بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف على يذيقهم فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعل فكتب إلى علي يستمده فأمر الناس أن ينهضوا إليه فثاقفوا نخطب فيهم هذه الخطبة . يا أهل الكوفة كذا سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظالمكم انجحر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه انجحر الضب في جحره والضبع في وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم أو خيب لأحرار عند النداء ولاخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا إليه راجعون ماذا منيت بكم عى لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون إنا لله وإنا إليه راجعون

ووجه معاوية بن أبي سفيان بن عوف في ستة آلاف للإغارة على هيت والإنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الإنبار وبها مسلحة لعل فطلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية فخرج على في طلبهم فلم يلحقهم ووجه عبدالله بن مسعدة إلى تباء ، وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فرجه له على جيشا يقدمه المسيب بن نجبة الفزاري فلحق ابن مسعدة بتبء فاقتلوا قتالا شديداً وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه الضحاك بن قيس للإغارة على بوادي البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وبابيع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبایع أهلها كذلك ثم ذهب إلى اليمن وكان واليهاب عبيد الله ابن عباس لعل فلما علم بمسير بسر إليه فرز إلى الكوفة حتى أتى علياً واستخلف على صنعاء لجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله وكان بسر عسوقاً أسرف في قتل من رآه من شيعة علي

هكذا كانت الحال في تلك الازمنة الثقيلة التي كانت إلى الفوضى أقرب
ومن أغرب ما يروى أن ابن عباس وهو الساعد الأشد لعل فارقه وترك البصرة
التي كانت قد ولاه عليها وجاء مكة لأن عليها اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين

الحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي — بيت علي — صفته وأخلاقه — الحسن بن علي —
مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة —
القضاء — الجند — الخراج والصدقات والعشور —
النقود — الحج — الصلاة — العلم والتعليم

مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبدالله وعمرو بن
بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم
وقالوا ما نضع بالبقاء بعدهم شيئا إخواننا الذين كانوا دعاء الناس لعبادة ربهم والذين
كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم
فأرحنا منهم البلاد ونأرنا بهم إخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال
البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا
وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه
فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل
على صاحبه الذي توجه إليه وأقبل كل رجل منهم على المصر الذي فيه صاحبه . فأما ابن ملجم
المرادى وكان عدده في كندة فخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من إخوانه شيئا
كرهه أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم على يوم النهر عشرة وفيهم
امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل على أباه وأخاه يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها
أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشفى لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة
آلاف وعبدوقينة وقتل علي بن أبي طالب قال هولاك مهرا ما على فلم أرك ذكره لي وأنت

تريديتي قالت بل اتبس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويثلك العيش معي وإن قتلت فاعند الله خير وأبقى من الدنيا وزيتها وزينة أهلها فقال لها والله ما جئت هذا المصير إلا لذلك ثم اخذت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادي بالحكم لله لالك ولا لأصحابك ففرع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لا يفوتكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على فقالوا له إن فقدناك ولا نفقدك فنبايح الحسن فقال ما أمركم ولا أنهاكم أنتم أبصرتم أوصى أولاده وفي يوم الأحد ١٧ رمضان توفي بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافة

أما البرك بن عبد الله فإنه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي ضرب فيه على فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودوى من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد . وأما عمرو ابن بكر جلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لأنه كان شاكياً وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمرا وأراد الله خارجة

بيت على

تزوج علي بن أبي طالب

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأُمّ كلثوم الكبرى (٢) أُمّ البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفرأ وهب الله وعثمان

(٣) ليلي بنت مسعود التميمية فولدت له عبد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخزاعية فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أُم ولد من سبي تغلب فولدت

له عمر ورقية (٦) أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأُمها زينب بنت رسول الله

صلى الله عليه وسلم فولدت له محمداً الأوسط

- (٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية
(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى
(٩) حياة بنت امرئ القيس الكلبي ولدت له جارية مانت صغيرة
وكان له بنات من أمهات شتى منهن أم هانيء وميمونة وزينب الصغرى ورملة
الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر
وجمانة ونفيسة وأمهاتهن أمهات أولاد شتى وكان النسل من ولده الخمسة الحسن والحسين
ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر

صفة علي وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال
كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تميم بن كعب والثاني من بني عدى وخضعت
لها الخضوع التام فسار القوم بقاب واحد في سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى
إذا آلت لبني عبد مناف وولياها اثنان منهم لغصت على أولهما حياته في آخره ولم
يصف الأمر لثانيهما في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم
من قرب بني عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الأدنون وسادة
قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانيهما من المميزات
الكبرى التي لم تجتمع في غيره . لا بد لذلك من أسباب : أما ما كان من أمر عثمان
فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فإننا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خالق
علي وما كان من الظروف التي أحاطت به
كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي

الشجاعة — الفقه — الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل . وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات
الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من شجاعته بيانه
موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوما يترصدونه حتى إذا
خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه ثم في بدر وما بعدها
من المشاهد كان علماً لا يخفى مكانه يبارز الأقران فلا يقفون له ويفترق الجماعات بشدة

هجمانه وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الاوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفه فعمل به الافعيل وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صرلته وقوة ضربته وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول محب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيته من ذكاء بنى عبد مناف ثم بنى هاشم ولم يزل معه إلى أن توفي عليه السلام كل هذا أكسبه قوة في استبطاط الاحكام الدينية فكان الخلفاء أبوبكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الاحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الاحيان وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيمرق مقداره فيهما من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الاستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداخل المزال إلى جواد الفضل والكمال

وطوراً كانت تنكشف لي الجبل عن وجوه بأسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النور ومخالب النور وقد تحفزت للرباب ثم انقضت للاختلاب نخلت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرعاها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء : وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدياً فصل عن المركب الإلهي واتصل بالروح الإنساني نخله عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأجل وسكن به إلى جانب التقديس بعد استخلاصه من شرائب التلبس وآفات كآني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلاء الكلمة وأولياء أمر الامة يعترفهم مواقع الصواب ويصرم مواضع الارتباب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرفعهم إلى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كثيراً

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم
ومصاهرته له جعلته يرى انفسه فضيلاً على سائر قریش صغيرها وكبيرها شيخها
وفتاها ويرى بذلك له الحق في ولاية الامر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو
يعلم أن محل منها محل القطب من الرحي ينحدر عن السيل ولا يرقى إلى الطير . وقال
فوالله ما زلت مدفوعاً عن حق مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى
يوم الناس هذا وهناك طبيعة ثابتة في الناس أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه
التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم
جعل ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه
لا يلجأ إلى الاستشارة فيما موصانع وهذا شيء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والاشياخ
. روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهم والاستعانة في
الامور بهما فقال لهما لقد نعمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً الاتخبراني أي شيء لكما
فيه حق دفعتكما عنه وأي قسم استأثرت عليكما به أم أي حق أرفعه إلى أحد من
المسلمين ضغفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في
الولاية أربة ولكنكم دعوتوني إليها وحلمتوني عليها فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب
الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي صلى الله عليه وسلم فاقديته
فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني
المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأماما ذكرتما من أمر الاسوة
فإن ذلك لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرغ منه فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمه
وأمضى حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى أخذاً الله بقلوبنا وقلوبكم
إلى الحق والأمن وإياكم الصبر . وأي نفس تعبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأى على
قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزدها في ماله وهو خليفة قضاؤه
محترم صواباً كان أم خطأ فلما آل الامر إلى على كان يريد قتل عبيد الله بعد أن
مضى على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من
نقواده العظام بصفين . كانت لعثمان قطائع أطلعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على

فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإمام لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق : بويع وولاية الأمصار من عليه قريش وذوى الراى والدعاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لأحد قولاً بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الراى فيهم حتى خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبرى فتأووه وكانوا عليه يداً واحدة أراد في هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم أنه لو لامهم ما بويع فلم يهتموا بذلك له حتى قالوا ارض التحكيم وإلا فعلنا بك ما فعلنا به ثمان : ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر بعضهم إلى بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة فقيم قلنا ابن عفان وكانت سأمته منهم وسأمتهم منه تزدد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويسنصرخهم فلا يفرعون وجيش خصمه قاده كبراء قرش وعظماؤهم فأمرهم قوم بالطاعة وماكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لها تين الطائفتين توازن عند الخصومة كان معاوية يتساهل ببعض الشيء لرهوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على الفير والقطمير في وقت هو محتاج اليهم حتى كان شيء من ذلك سبياً في تغير قلب ابن عباس عليه وفرقة له فترك البصرة وذهب إلى مكة . ليس شأن على في ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما على فكان معظم الأمة عليه فضلاً عن أن كثيراً من التهم كانت تلتصق بعماله من قوم يشنون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد الله ابن عباس . وعلى الجملة إن أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى هقيده في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغناؤه عن رأى الاشياخ من قريش وشدة عليهم شدة لم يهدلها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التي كان فيها حاجة من السياسة

الحسن بن على

كان من رأى جند على أن يبايعوا الحسن بن على بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة وجد جندا لا يركن اليه وخصما قوى الشكينة وفرق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم ير خيراً لنفسه

ولآلامته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه على شروط رضىها الطرفان وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم إليه الكوفة في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة عام الجماعة

مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين

اصطاح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دول الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدنية الإسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية بجمع النظام الذي اتبعوه في أحوالهم الاجتماعية سواء في إدارة أمورهم الداخلية أو في حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الإسلامية وكان الرئيس بسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم ما زال مستعملاً لقباً للجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رئاسة دينوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعاً في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا ما لا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا في الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى في عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا في الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطاناً دينياً كما يزعمون وإنما هي سلطان أساسه الدين

لم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بني تيم وعمر من بني عدى وعثمان وعلي من بني هبدمناف : وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة

كونها لاتتبع لها أسرة وصاحبها يتعين بالا انتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعي
تشبه رئاسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشي
وكانت الناس تباع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبي بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة في بيعة على لأنه
أياماً لما عرض عليه الأمر عبدالرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض
لهم من الأمور أو أنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك وكان أكثرهم اهتماماً
بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلماً يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحس
الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومثيختهم من المهاجرين والأنصار
ومشيخة قرش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبدالمطلب وعبد الرحمن بن عوف
وعلى بن أبي طالب ومن مائلهم وكان يلحقهم عدائهم بن عباس لما يراه من فقهه
وجودة رأيه : وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الأمر
فى المسجد بعد أن يدهو (للصلاة جامعة) فيقول كل ما بداله وربما استشار بعد ذلك
خاصته . وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول
من رأى منكم فى أعوجاجاً فليقمه . ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله إلا أنه
لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لأن حياتهم
كانت مبنية على المساواة

ولم يكن يتقص هذا النظام البديع إلا شئ واحد وهو تعيين من لهم الصوت فى
انتخاب الخلفاء بوصف بينهم لأن عدم هذا التعيين كان سبباً من أسباب الفرقة بين
على ومعاوية لأن علياً كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم فى ذلك
أهل الأمصار الأخرى فتنابح أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لاحد بعد ذلك
اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لاتتم
إلا برضا أهل الأمصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين
لم يكن للخلافة فى هذه الدولة شئ من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير
فى طريقه وفى بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان
عمر يكره أن يكون له ماله - جاب حتى أنه أرسل لسعد بن أبى وقاص من أحرق
باب دار الإمارة الذى حال بين العامة وبين رفع شكراهم إليه

القضاء

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء : ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتديرها فتوضوا هذا العمل إلى من في مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاء إلا من عهد عمر بن الخطاب فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم أنموذجا يسرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين : ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لأمر الأمصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من الخليفة رأساً وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولى فلاناً قضاء ببلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة : وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاء ما كتبه علي بن أبي طالب إلى أحد عماله ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتأدى في الزلة ولا يحصر من النية إلى الحق إذا عرفه ولا يشرف نفسه على طمع ولا يكتنى بأدنى فهم إلى أقصاء أوقفهم في الشبهات وأخدم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرهم عند انضاح الحكم ممن لا يزدنيه إطراء ولا يستميله لإغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائهم وأفسح له في البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطاه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك)

وكان في كل عصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة

فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عنده غيره وبذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الاقضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوى والاقضية

لم يكن القاضي في أحكامه موكولاً إلى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وإنما كان موكولاً إلى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات حقيقة أن ذلك القانون لم يعن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضي والحال ما ذكرنا أمر لا بد منه ولذلك أعده المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاء مانعاً الخلفاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء في آفات كثيرة فكأن القضاء كانوا نواباً للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولأن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له لأن ذلك لم يكن ما يدعوا إليه مادام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضى وهو الذي ينفذ الحكم ويظهر لنا بما قرأنا من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين

ويظهر لنا أن قضاء القضاء في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاية الأمصار لا ناراً بناقضاً يا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد بسكر ولم يبلغنا أن قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضاً أن قضاء الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاء في غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضاة والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم

الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسله إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمور الجنود والنظر في معدائهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان الأمن عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دقن لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجده ويقال إن هذا تخلف : وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ويرون في الإحجام عاراً لا يمحى وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسق بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم علي بن أبي طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجنود ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد أن كانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة السكتر والفتروهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفتز ويكتر وهكذا لا يتبعون في ذلك نظاماً رأى قواد الجنود من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون في الأمام وهي التي تبدأ الماوشات وتعرف الطريق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجربان يئني ويسرى أوجناحان وساقة ولكل فرقة أميراً تمر بأمر القائد وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم في الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤثروا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر ابن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول (وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدوهم مقيم حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحبون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا

يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة. ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوا خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه والغاش عين عليك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختار للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك وتخبر لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدواً كان قول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاء ولا نخس أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حاييت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكابة فإذا عاينت العدو فاضم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لاتعاجلهم بالمناجزة مالم يستكروك قتال حتى تبصر هورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كعمرة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم اذك حراسك على عسكرك وتيقظ من الليالي جهرك الخ)

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالاً مستقلين عن العمال والقبواد وقبل ما كانوا يكون أمر الجباية إلى العمال وكانوا يدفعون عما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل إلى دار الخلافة ليصرف في مصارفه

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية أو إيرادات غير ثابتة : أما الأولى فهي

الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها يؤخذ منهم كأنه أجره للأرض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يعملونه أحياناً شيئاً مذكراً كما جعل عمر في السواد وأحياناً يعملونه حصّة شائعة مما يخرج من الأرض أما الأراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها

المسلمون غنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب فهذه أرض
عشر ومثلها الاراضى التى امتلكها المسلمون غنوة وقسمت بين الغانمين : والعشر
هو عشر ما يخرج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس فى قسمة الارضين التى فتحها
المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر فكيف
يمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت
ما هذا برأى فقال عبد الرحمن بن عوف فما رأى ما الارض والعلوج إلا ما أفاء
الله عليهم فقال عمر ما هو إلا ما تقول واستأرى ذلك والله لا يفتح بعدى بلد فيكون
فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها
وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد
وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسيا فإنا
على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولا بناء القوم ولا بناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر
لا يزيد على أن يقول هذا رأيي قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا
فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيهم أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة
وابن عمر رأى عمر فأرسل إلى عشرة من الأنصار وخمسة من الأوس وخمسة من
الحزرج من كبارهم وأشرفهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال
لاني لم أزعجكم إلا لأن تشركوا معي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم
اليوم تفرقون بالحق خالفني من خالفني ووافقتني من وافقتني ولست أريد أن تتبعوا
هذا الذى هوأى . معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر
أريده ما أريد به إلا الحق قالوا قل نسمع يا أمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء
القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم وإني أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت
ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد
أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنمنا من أموال
بين أهلها وأخرجت الخمس فوجته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس
الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فينا المسلمين المقاتلة والذرية
ولمن يأتى من بعدهم : أرايتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها أرايتم هذه

المدين العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدراج العطاء عليهم فن أين يعطى هؤلاء إذا سمت الأرضون والعلوج فقالوا جميعاً رأى رأيك فنعما قلت وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما ينفقون به رجع أهل الكفر إلى مدنها : فقال قد بان لي الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعه إلى أمم ذلك فإن له بصراً وعقلاً وتجربة فأرسل إليه عمر فولاء مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثلقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خير وكان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح فقال عمر إذا أترك من بعدكم من المسلمين لاشئ لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهل ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضي والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الإعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنها إذا خلت من المقاتلة والمرزقة ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً في عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كانت يوضع على رؤس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا يمن لا قدرة له على العمل

روى أبو يوسف القاضي في كتابه الموسوم بالخراج ص ٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أي أهل الكتاب أنت فقال يهودي قال فما الجأك إلى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر يده وذهب به إلى منزله فوضع له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الحرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون

وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه
وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لاتزيد عن ٤٨ درهما
في السنة ولاتنقص عن اثني عشر . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من
ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حبيبه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند
وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعدم
وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الإبل والبقر
والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم وقد بينت الشريعة لكل ذلك
نصابا معيناً لاتجب الزكاة فيما دونه وقدر معين لا يؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبه
رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده وكانوا يعينون لأهل
البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر
أموالهم فكتب أبو موسى الأشعري إلى عمران تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض
الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليهم عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين
وخذ من أهل الذمة ربع العشرو من المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيأخذون المئتين
شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه

وروى أبو يوسف القاضي أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى
عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً
من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر عليه راجعاً
في سنته فقال أعطني ألفاً أخرى فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً قال
نعم فرجع التغلبي إلى عمر فوفاه بمكة وهو في بيت فاستأذن عليه فقال من أنت قال

رجل من نصارى العرب وقصّ عليه قصته فقال عمر (كفيّت) ولم يزد على ذلك فرجع النغلي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه من مر عليك فاخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً فقال الرجل قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفا وإنني أشهد أني هلى دين الرجل الذى بعث إليك الكتاب

قد اتبع المسلمون عمر في تشيير أموال التجارة التى تردّ من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملوني على عشور الإبله فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبت ما عمل عليه الإنسان قال فقال لي لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين بمن ليس له ذمة الشرك

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة إلى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف إلا أنهم لم يكونوا يتركون فى بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقى يردّ إلى بيت المال ليصرف فى مصارفه

النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدنية والحضارة وكانت الأمة العربية تغلب عليها إذ ذاك البداوة ولما جاء الإسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ودرهم وزنه عشرة قيراطاً

فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهي ٢٤ قيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط المئقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كل منها - ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمئقال كنسبة ٧٠ : ١٠ نقل المرحوم على مبارك باشا في خططه عن المقرئ الميرزا قال وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله وحده وعلى أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها الله أكبر

الحج

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم وكان الحج معتبرا في نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال في بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوه من رعيته وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلبا يتخلفون وكان أكثرهم توليا لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب حج سنه كلها لم يتخلف أبدا إلا أنه حصل خلاف في السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبدالرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنه وعلى أناب عنه كل سني خلافته لما شغل به من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية

كان هذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهرا عظيما وقائدة كبرى في تعارف المسلمين بعضهم ببعض وأن الخلفاء يجيئون من الأخبار ما لا يمكن أن يكون بواسطة الولاية

الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه وكان في كل مصر مسجد جامع واحد تؤدي به الجمعة ولا ينصب منبر في غيره فلم تكن تقام إلا الجمعة واحدة في مصر يقيمها الخليفة إن كان أو الوالي ولم يبلغنا أنه تعددت المنابر في البلد الواحد في عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الإسلام نادرة في الأمة العربية خصوصا الحجاز ونجد فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففي زمن رسول الله صلى الله

عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر في أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير من يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان أكثر النشء الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع في صحف في عهد أبي بكر وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها إلى الأمصار ليكون كل مصحف لإماما لأهل المصر الذي أرسل إليه . أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع في كتاب . وكذلك لم يكتب شيء في العلوم . أما الديانة منها فكانوا مكثفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها والشريعة إنما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لاتزال فيها على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأرض بالمران على ذلك لا يتعلم سابق

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الأموية — معاوية وترجمته — انتخابه

حال الأمة حين انتخابه

الدولة الأموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد والمال وكثرة العصبية كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لأمية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف ففهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الأعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وقد كان

حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذى تحمل الديات فى ماله حينما دعا الناس إلى الصلح فى ذلك اليوم رهن لسدادها ولده أبى سفيان : وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الألفة بينهما طويلا وأبوسفيان كان صديقا للعباس بن عبد المطلب فلم يكن هذان البطان متعادين فى الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدق فى المسائل التاريخية وإنما كان يظهر فى بعض الأحيان شئ من التنافس الضرورى وجوده فى الأحيان المتقاربة وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطان مختلفين فيما به الشرف فى الجاهلية الأولى بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطا وافرأ لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بنى عبد شمس جمع كما أجابه من بنى هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صد عنه كثير من أولئك إلا أن بنى هاشم وبنى المطلب حذبا على رسول الله للعصية القومية العربية حيث حماه أبوطالب كبير بيته . وكان يزاحم بنى عبد مناف فى الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان المؤمنون من جميع قبائل قريش إلا أنه لم يكن فيهم من بنى هاشم إلا أبو لهب : جاءت الحروب الإسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فبا بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عدد قليل من بنى عبد شمس وكان القائد الأكبر لقريش فى بدر من بنى عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم فى أحد والأحزاب أبوسفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة وكان أبوسفيان رجلا عظيما فى نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالباً بحجة الذخر والذكر فأنهى العباس ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول فى ذلك اليوم تأليفاً له وتحبياً إليه ما لم يعطه أحداً وهو أن أمر منادياً ينادى بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فسوى بين بيته وبين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله الآن وفى ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الإسلام من رجالات قريش وذوى النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر الناس بإسلامهم وكان يقابلهم قائماً فاتحاً ذراعيه معانقاً لهم كما فعل بصفوان بن أمية

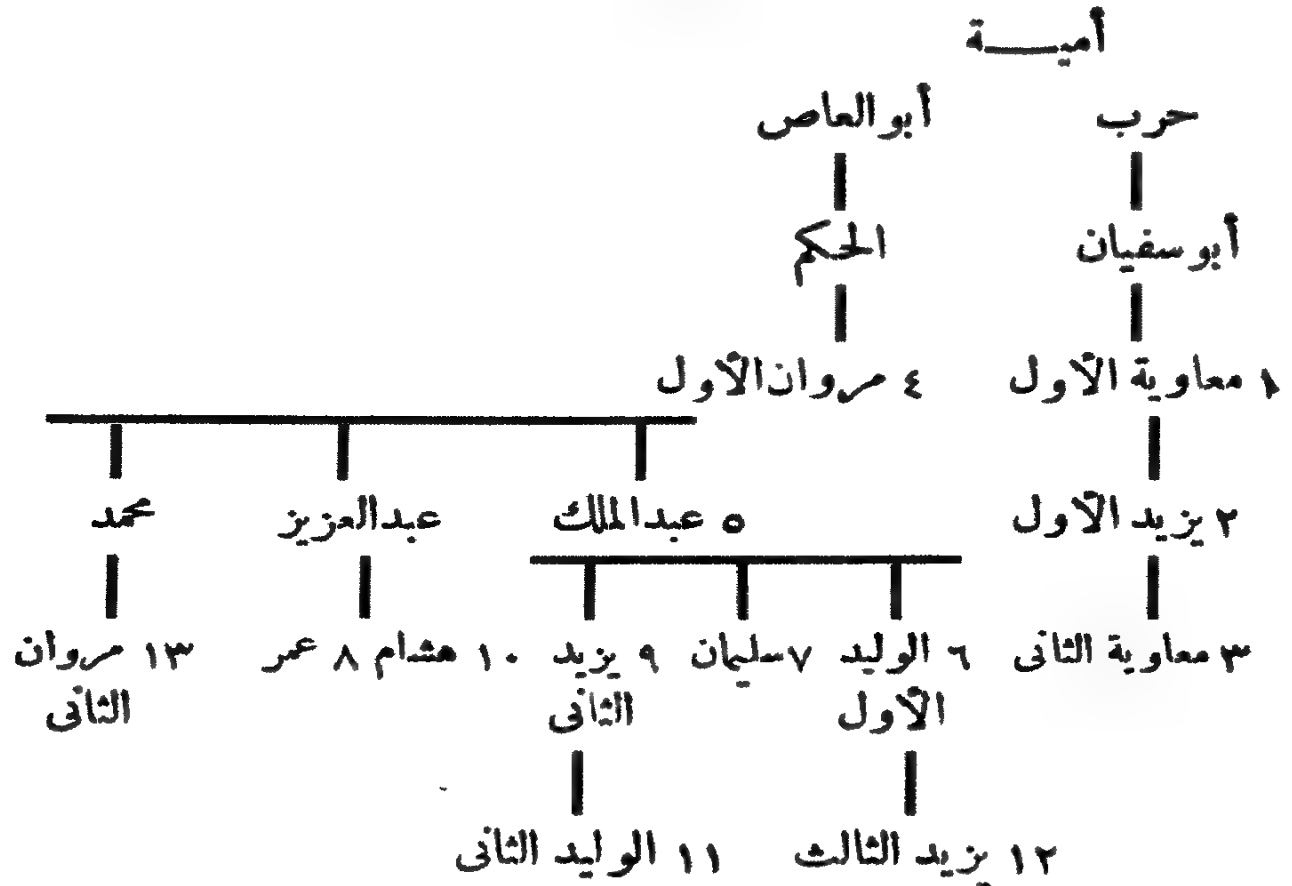
والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عفوه عنهم سيكون عيباً لاحتسابهم يعيرون به في مستقبل أيامهم

وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شاذان بن عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين في حروب الردة فأبلاوا فيها بلاء عظيمًا وأغنوا غنائم حسنة ثم سير بهم إلى ثغور الشام وكانوا كلهم في شوق إلى وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم للإسلام حتى يكتب لهم في نصرته ما يمحوا ما كتب عليهم في مغاضبته

ومن أشهر غنائمهم وعظم ذكركم يزيد بن أبي سفيان فقد كان ولده أبو بكر قيادة أحد الجنود الأربعة التي توجهت لفتح الشام وكان واليها على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملاً على إحدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً إلى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحسن منه بحسن السياسة وقوة التدبير والأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفي عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار إليها العام ويولى على الكور عمالاً من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بني عبد شمس فساسوا الجنود وأرهموها بالطاعة

وعلى الجملة فإن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام وقد قال عليه السلام (الناس معادن تخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) فاتصلت له السيادةتان

وفروعها التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبي العاص ابن أمية وكان من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة على الشكل الآتي :



فقد تولى من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة ومدة خلافة هذه الدولة
تبتدئ من اليوم الذي بويح فيه معاوية بيعة عامة في ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهى بمقتل
مروان الثاني بن محمد سنة ١٣٢ ثلاث بقين من ذى الحجة وهى ٩١ سنة وتسعة أشهر

١ — معاوية بن أبي سفيان

ترجمته

هو معاوية بن أبي سفيان صحز بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة
قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفي ذلك اليوم دخل في
الإسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد إسلامه يكتب بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة أبي بكر ولادة قيادة جيش مدداً لآخيه يزيد بن أبي سفيان
وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت إمرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا
وعرقه وجبيل ويبروت وهى سواحل دمشق ثم ولاه عمرو ولاية الأردن : ولما توفى
يزيد فى طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد على دمشق ومأمها . وفي عهد

عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاية أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع على بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لأنه اتهمه بالهوادة في أمر عثمان وإيواء قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان وراء ذلك أن حاربه علي بن أبي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية إمام أهل الشام وعليّ إمام أهل العراق وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي ابن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية وحيثما اجتمع على بيعه معاوية أهل العراق والشام وسمى ذلك العام الحادى والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة في ربيع الأول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعنى من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكّمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة . فلما قتل وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه فبايعه في ربيع الأول سنة ٤١ فبيعه اختياراً من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق إلا أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ما عدا الخوارج حال الأمة عند استلام معاوية الأمر

تولى معاوية أمر الأمة وهى أقسام ثلاثة القسم الأول شيعة بنى أمية من أهل الشام ومن غيرهم فى سائر الأمصار الإسلامية . القسم الثانى شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر : القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفينهم ويرونهم مارقين من الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة عليّ لأنّ كلا قد ألد على زعيمهم فى الدين ومع

ما بينهما وهم من هذا النباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والاقدام ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة في إدارة شؤونها وإفاضة ثوب الأمن عليها : أمامعاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يدأ في السياسة صانع رهوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصا به فيه لاتزع ومراقاته فيه تزل عنها الاقدام

كان الذي بهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لانهم قوم قلوبا ينفع معهم حسن السياسة لانهم قوم غلوا في الدين غلوا عظيما وفهموا كثيراً منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الأمة ورأوا من واجبه استعراض الانفس وأخذ الاموال ولنبداً بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعي معتزلاً في ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعاً من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقتل معاوية لأهل الكوفة والله لا أمان لكم عندي حتى تكفونيهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فإن أصبنا كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كفيتهمونا فقالوا لا بد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبدالله بن أبي الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلهم وكان ابن أبي الحوساء قد خوف بالصلب فقال

ما إن أبالي إذا أرواحنا قبضت ٥ ماذا فعلتم بأوصال وأبشار

تجرى المجزة والنسران عن قدر ٥ والشمس والقمر الساري بمقدار

وقد علمت وخير القول أنفعه ٥ أن السعيد الذي ينجو من النار

فلما قتل ابن الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثة الأسد فصار حتى قدم النخيلة في ١٥٠ وانضم إليه فل ابن الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبي حوثة اكفني أمر ابنك فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فأداره فمسم فقال له يا بني أجيتك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه فقال يا أبت أنا والله إلى طمئة نافذة أتقلب فيها على كموب الرح أشوق مني إلى ابني فرجع إلى معاوية فأخبره فقال يا أبا حوثة عتا هذا جداً ولما نظر حوثة إلى أهل الكوفة قال يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا

سلطاناه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشددوا سلطاناه فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال
يا أبت لك في غيري مندوحة ولي في غيرك مذهب عنك ثم حمل على القوم وهو يقول
أكرر على هذي الجموع حوثة ه فغن قليل ماتنا المغيرة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فقدم على قتله .
ثم توالى الخوارج حتى أخافوا بلاد العراق فرأى معاوية أنه لا بد من تولية العراق
رجالاً ذوي قدرة وحكمة يأخذون على أيدي السفهاء ويشددون في طلب المريب فاختر
رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأي وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة
فأما زياد فقد كان من شيعة علي وكان والياً له على فارس وقتل علي وهو بها فذكر
معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطاً في استقدامه فأتى المغيرة زياداً
وقال له إن معاوية استخفه للوجل حتى بعثني إليك ولم يكن أحد يمد يده إلى هذا الأمر
غير الحسن وقد بايع نخذ لنفسك قبل النواطين فيستغنى عنك معاوية فقال زياد أشر
علي وأرم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أرى أن تصل حلك
بجبله وتشخص إليه ويقضى الله : وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عودة المغيرة فخرج
زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما
حمل إلى علي وبما بقي عنده فصدقه معاوية وقبض منه ما بقي عنده

وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً الحقه بأبي سفيان لاعتراف كان من أبي سفيان
بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب إلى زياد في حياة علي يعرض له بولادة
أبي سفيان إياه فلما علم بذلك على كتب إلى زياد يقول له (إني وليتك ما وليتك
وأنا أراك له أهلاً وقد كانت من أبي سفيان قلعة من أمان الباطل وكذب النفس
لا توجب له ميراثاً ولا تحمل له نسباً وأن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن
خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل علي رأى معاوية
أن يستميل زياداً واستصفي مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سفيان
وإن كان كثير من الناس لا يهترف له بهذا النسب فقد كتب زياد إلى عائشة أم المؤمنين يقول
لها من زياد بن أبي سفيان وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت إليه من
عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك
أخوه أبو بكر وكان له مهاجر الجاء إلى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال له يا بني قل

لاييك إننى سمعت أنك تريد الحج ولا بدمن قدومك إلى المدينة ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأمر حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم فإن أذافت لك فأعظم به خزيا مع رسول الله وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا فترك زياد الحج وفي السنة الخامسة والأربعين ولاء معاوية البصرة وخراسان وبجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥ هـ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبراء وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها ولما في هذه الخطبة من روائع الكلام وبديع الحكم وبيان سياسته في حكم البلاد أحببنا إيرادها قال

أما بعد فإن الجهالة الجاهلة والاضلالة العمياء والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام يثبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكونون كمن طرقت عينه الدنيا وسدت مسامحه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويتوخذ ماله : ما هذه المواقير المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم يكن منكم نهاية يمنع الفواة : عن دجل الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتعضون على المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفیهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا . ما أنتم بالحلماء ولقد أتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوسا في مكائس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صاح أوله : أين في غير ضعف وشدة في غير عنف وإنى أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى ياتي الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم إن كذبة المنبر بقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم مدينتي فإذا سمعتموها مني فاعتمروها في واعلموا أن هندی أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فيايى ودجل الليل فإنى لأوتى بمدجل إلا سفكت دمه وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما بأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم . وإياى ودعوى الجاهلية فإنى لأجد

أحدا عليها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقلنا أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن تقب بيتا تقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حيا فكفروا عن أيديكم والستكم أكفف عنكم لسانى ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بينى وبين أقوام إحن جعلت ذلك دبراً ذنى وتحت قدمى فمن كان منكم محسناً فليزدد إحسانا ومن كان مسيئاً فليزغ عن إساءته إني لو علمت أن أحداً منكم قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهلك له سترأ حتى ييـدى لى صفحته فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدمونا سيـر ومسرور بقدمونا مبيتئس . أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بغير الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما أولينا فاستوجبوا عدلنا وفيما بمناصحتكم لنا واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بايـل ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانته ولا بجرأ لكم بعثاً فادعوا الله بالصالح لا تمتسكم فإنهم ساستكم المؤذون وكم فكم الذى إليه تأوون ومتى تصلحون يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله وإيم الله إن لى فيكم لصـرى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى

فقام إليه عبد الله بن الـهم فقال أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود فقال الـحـنـف لقد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وإنا لن نثنى حتى نبـتلى فقال صدقت : فقام إليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ما قلت قال الله تعالى (ولـبراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة فوزر أخرى وأن ليس الإنسان إلا ماسعى) فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يا زياد . فقال زياد إنا لن نصـل إلى الحق فيك وفى أصحابك حتى تخوض فى الباطل خوفاً

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الخبر السكوفة وعاد

إليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي فيأمر رجلاً أن يقرأ سورة البقرة أو مثلاً يرتل القرآن فإذا فرغ أهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنساناً إلا قتله فأخذ ذات ليلة أعرايا فأتى به زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيت لي الليل فاضطرتها إلى موضع وأقت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير فقال أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأئمة ثم أمر به فضربت عنقه : وكان زياد أول من شدد أمر السلطان وأكده الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد باباً وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط أربعة آلاف . وقيل له إن السيل مخوفة فقال لأعاني شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فإن غلبني فقيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلم ما وراء ذلك فأحكمه : قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة . ووجه يوماً بحينة بن كبيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى رأى الخوارج فجاء بحينة فأخذه فقال إنني أريد أن أحدث وضوءاً للصلاة فذهني أدخل إلى منزلي قال ومن لي بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتى به بحينة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عني فأنكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال إنك قد قلت قولاً فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلكم أستطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا نفعاً لنفسه ولا حياة ولا نشوراً فخرزق الله منه ماترون . وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنكم عن إتياني إلا الرحلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل الدأس . النجدة أنه يرى رأى الخوارج خدعاه فولاه جند يسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عماله

في كل سنة مائة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل واليا حتى أنكر منه زياد شيئاً فتمترل زياد لحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات

وفي سنة ٥٥ أضاف معاوية إلى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبه فصار والي المصريين وهو أول من جمعه له فسار إلى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقوان لأدري من جليسي ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون ما منا حصبك فنحلف بخلاء ومن لم يحلف حبسه حتى صار إلى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب . وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة علي رأسهم حجر بن عدي الكندي وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون في معاوية وعماله فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال أما بعد فإن غيب الغي والغى وخيم إن هؤلاء جموا فأشروا وأمنوني فاجتروا على الله أن لم تستقيموا لآدابكم بدوائكم واست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده ويل أهلك يا حجر سخط العشاء بك على سرحان . وأرسل إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأبى حجر أن يجيء فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ففعل فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيدو تأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لي براءتكم أو لا تينكم يقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا ما ذا لله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق إلى حجر فاتقي به فإن أبي فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتونني به وبمن معه فبعد خطوط طويلة جيء به فلما رآه زياد قال له مرحباً أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجنى براقش فقال حجر ما خلعت طاعة ولا قارقت جماعة وإنني على بيعتي فأمر به إلى السجن ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم أثناء شر رجلاً فأودعهم السجن وأحضر شهوداً شهدوا على حجر أنه جمع الجوع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين

وأظهر أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربة وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود على ذلك كثيرين من أهل الكوفة فكتب شهادتهم وأرسل بها وبجبر وأصحابه إلى معاوية فسير بهم حتى انتهوا إلى مرج حذراً عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة وهم الذين تبرعوا من على بن أبي طالب

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عنى ذلك من حملاء قومي وحملي ابن سمية فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الآمور إلى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حجراً وكانت تتشيع

ترفع أهبها القمر المذير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا	كأن لم يحيا مزن مطير
ألا يا حجر حجر بى هدى	تلفتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى هديا	وشيخا في دمشق له زئير
فإن تهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا إلى هلك يصير

وتوفي زياد في سنة ٥٣ بالطاعون

والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة إعلان حكمه في فإن أخذ الولي بالمولي والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعي الذي يقصر على المسؤولية على المجرم وإنما ذلك شيء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف آلام الجرائم وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك في الغالب وقية . ومن ذلك وضعه العقوبات التي شرعها للجرائم المحدثه كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياة ومن ذلك : عقوبته للدجل بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لاثقة لأهل

العراق وقد أفادت في إصلاح حالهم لأن الأمان ساد وقلّ خروج الخوارج في زمنه ولكنه ضحى في سبيل الوصول إلى ذلك شيئا كثيرا والتاريخ إنما يعطى الإنسان حصة السياسة والحكمة إذا تمكن من إصلاح الفاسد بقليل من العسف لا نقول ذلك هضمًا لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولا لـالعراق إسرافًا في الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم به عهده فقال إنه لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقًا بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن إبانته ولا يحمر لهم بعثا وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالى وصدقها لا نجد سببا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين إن زياد لم يحتج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات إلا قليلا لأن عليهم بصدقه في الإيعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم وعلى الجملة فإن عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق أسفا وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة وإذا ولهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصائب وأجرموا إلى الأمرأه أو الخلفاء من غير مبينة واضحة

المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيد الله بن زياد — الفتوح في عهد معاوية
بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين . أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال إن فلانا يرى رأى الشيعة وإن فلانا يرى رأى الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يأتى بعضهم بعضا ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر : وقد فزع الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر منهم المستورد بن هلفة التميمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان

السلى ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لأنه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٣٤٤ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة إليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من ذلك شيئاً ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب - قال المغيرة بلى قد بلغنى ذلك عنكم قد صدق ذلك عندى جماعتكم . قالوا له أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فتحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه فأمرهم إلى السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا وخروج المستورد وأصحابه فباغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام في أهل الكوفة خطيباً فقال :

(أما بعد : فقد علمتم أيها الناس أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى وإني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الخلباء الاتقياء فلا وإيم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفية الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عواقمكم وقد ذكرلى أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وإيم الله لا يخرجون في حى من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجمعاتهم نكالا لمن بعدهم فظروا قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قت هذا المقام إرادة الحجّة والإعذار) فقام إليه معقل بن قيس الرياحى فقال أيها الأمير هل سمى لك أحد من هؤلاء القوم فإن كانوا سموا لك فأعلننا من هم فإن كانوا منا كفيناكم وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأنتك كل قبيلة بسفهائها فقال ماسمى لى أحد منهم ولكن قد قيل لى إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل أمصلحك فإنى أسير فى قومى وأكفيك ما هم فيه فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه : فنزل المغيرة وأرسل إلى الرؤساء وقال لهم ليكفى كل امرئ من الرؤساء قومه وإلا فوالذى لا إله غيره لأنحولن عما كنتم تعرفون

إلى ماتكرونها وما تحبون لي ماتكرونها فلا يلم لاسم إلا نفسه وقد أعذر من أنذر
فخرجت الرؤساء إلى عشائهم فنادوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه
يهيج فتنة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا في إحدى دور عبد القيس قام حمصة بن صوحان العبدى
وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدى فكره أن يؤخذوا في عشيرته
وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطابا حسنا قال في آخره (ولا قوم أعدى الله
ولكم ولاهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمامنا
واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فأياكم أن تؤوم في داركم أو تسكنوا عليهم
فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله
ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحى وأنا باحث عن ذلك وسائل فإن كان حكي
ذلك حقا تقربت إلى الله بدمائهم فإن دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره
المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من في محبس المغيرة إجماع أهل المصر على نفي من كان
بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين في ذلك

الأيها الشارون قد حان لامرئ	شرى نفسه الله أن يرحلا
أقتم بدار الخاطئين جهالة	وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها	إقامتكم للذبح رأيا مضلا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي	إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتنى فيكم على ظهر ساج	شديد القصيرى دارعا غير أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى هدرم	فيسقيني كأس المنية أولا
يعز على أن تخافوا وتطردوا	ولما أجرد في المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد	إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحا بنصل السيف في حمس الوغى	يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا	وأصبح ذابث أسيرا مكبلا
ولو أتى فيكم وقد قصدوا لكم	أثرت إذا بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فلت وغارة	شهدت وقرن قد تركت مجدلا
ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سورا فقاموا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة	

فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الجبن وسوء الرأي فن ترون أبعث اليهم قمام اليه عدى بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرايهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار اليهم قمام معقل بن قيس فقال إنك لا تبعث اليهم أحدا ممن ترى حولك من أشراف المطار إلا وجدته سامعا مطيعا ولم يفارقا ولهلاكهم محبا ولا أرى أصلحك الله أن تبعث اليهم أحدا من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني اليهم فإني أكفيكمهم بإذن الله فقال أخرج على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخبروهم من نقاوة شيعة على وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه بأب الرواغ اليشكري في ٣٠٠ فلحقهم بالمدائن مقيمين فبات ليلة حتى إذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فماتت لهم إنسان ثم إن أب الرواغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة الكرة فعادوا إلى الحملة مرة ثانية ولاكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا فقال لهم الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لانزايهم حتى يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتلى فقال له رجل إن الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا أكثر الله فينا مثلك إنما لم ندع المعركة فلم نهزم إنما متى عطفنا عليهم وكنا قريبا منهم فنسكن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم معقل فشكر أب الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله إن لم شدة منكرات غلاتكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن أنت من وراء الناس درء لهم فقال نعم رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الأرض الأرض يا أهل الإسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفي أثنائه بلغ الخوارج أن جيشا من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار أن يقفوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم إلا عند الصبح فعاد متبعا آثارهم وأب الرواغ على مقدمته في ٦٠٠ فلحقهم بجر جريا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فأنكشف جند أبو الرواغ وبقي معه نحو مائة رجل فمطف عليهم وهو يقول :

إن الفتى كل الفتى من لم يهل إذا الجبان حاد عن وقع الأسفل
قد علت أنى إذا البأس نزل أروع يوم الهبيج مقسدام بطل
ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردوهم إلى مكانهم
الذى كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وساروا
وأبو الرواغ في آثارهم . قال المستورد لأصحابه إن الذين مع أبي الرواغ هم حز أصحاب
معقل فهم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقى بأصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ
بعد أن خدعه ولم يكن إلا قليل حتى التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما
رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادى يا عباد الله الأرض الأرض فنزل معه نحو من
٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم بأطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا
على حملات الخوارج الشديدة : وبيناهم على تلك الحال إذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب
الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجة أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسة
منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيده معقل
السيف وبيد المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان
من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى غاط أم الدماغ فخرأ ميتين وبذلك
انتهى أمر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن أن يماثلهم أحد في شدائهم المنكرة قال
الشعبي ما أولنا وال بعد المغيرة مثله وإن كان لاحقا بصالح من كان قبله من العمال .
وأقام المغيرة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهرأ وهو من أحسن شيء سيرة وأشده
جبا للمعاوية غير أنه لا يدع ذم على والوقع فيه والعيب لقتله عثمان واللعن لهم والدعاء
لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه وكان يقول لأحب أن أبتدى أهل
هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دماهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز في الدنيا معاوية
ويذل يوم القيامة المغيرة ولكنى قابل من محسنهم وعاف عن مسيئتهم وحامد حلیمهم
وواظم سفهمهم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيدكروني لو قد جربوا العمال بعدى
قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدنا خيرهم أحدهم للبرى . وأغفرهم
للسوء وأقبلهم للمذر . وتوفي المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليه لأنه
أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف
ومن ولاية العراق الأشداء عبيد الله بن زياد ولواء معاوية البصرة سنة ٥٥ وقت

اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبو زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفي الحرب جماعة أخرى وعن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبي بلال مرداس ابن أدية وكان سبب ذلك أن ابن زياد خرج في رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن في الامم قبلنا فقد صرن فينا : (أتبنون بكل ربيع آية تعشون وتتخذون مصانع لعالمكم تحلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتين أخريين . فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترئ عليه إلا ومعه جماعة من أصحابه فقام وركب وترك رهانه : فقبل لعروة ما صنعت تعلن والله ليقتنك فتواري فطلبه ابن زياد في الكوفة فأخذها فقدم به على ابن زياد فأمر به فقطعت يده ورجلاه ثم دعا به فقال كيف ترى قال ارى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس في أربعة رجال بالاهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصن التيمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم

ألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بأسك أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم لكن الخوارج مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصروننا

ولم يزل عبيد الله راليا على البصرة حتى توفي معاوية

وفي مصر كان الوالى عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل واليا عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاية سيأتى ذكرهم متى بدأنا فى تاريخ مصر

أما الحجاز فكان ولاته دائماً من بنى أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاية الطائف فإن رأى منه خيراً وما يدعجه ولاء مكة معها فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل هو فى أبي جاد فإذا ولاء مكة قيل هو فى القرآن فإذا ولاء المدينة قيل هو قد حذق : وكان ولاية المدينة فى الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فإن معاوية لم يحج بنفسه إلا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٥ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاية وكلهم من بنى أمية

الفتوح في عهد معاوية

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس إلا فتح قليلة والذي كان إنما هو إرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة وغزا عبدالله بن سوار العبدى الذى كان أميراً على ثغر السند القيقران^(١) مرتين وفي المرة الثانية استعان القيقان بالبرك فقتلوه وغزا المهلب بن أبي صفرة الأزدي ثغر السند فأتى بنة ولاهور^(٢) وهما بين الملتان وكابل فلقية العدو وقاتله ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقتلوه فقتلوا جميعاً فقال المهلب ما جمل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشهير منا لحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان أحدهما قسطنطين الثانى بن هرقل الثانى الذى ولى الملك من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغاناثس الذى ولى من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تنزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجرار فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً أما البحر فكانت الأساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غائمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس افتتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شئ على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما في البر فرتب الشواتى والصوائف والشواتى جمع شاتية وهى الجيش الذى يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهى الجيش الذى يغزو في الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوفة من العدو وفي سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية برأ وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمرأته يزيد أن يغزوا معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم وعبد العزيز بن زرارمة الكلأبى فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتل المسلمون والروم في بعض الأيام

(١) من بلاد السند مما يلي خراسان (٢) مدينة بكابل

واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبدالعزیز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول :
قد عشت في الدهر أطواراً على طرق شتى فصادفت منها اللين والبشما
كلا بلوت فلا النماء تطربني ولا تخشعت من لاوائها جزوا
لايملأ الأمر صدري قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا
ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجرة الروم برماحهم حتى قتلوه
خبلى خبر قتله معاوية فقال لآييه والله هلك قتي العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك
فأجرك الله فقال :

فإن يكن الموت أودى به وأصح من الكلابي زيراً
فكل قتي شارب كأسه فلما صغيراً وإما كبيراً

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمائة أسوارها ومنعة موقعها وقتك
النار الإغريقية بسفنهم . وفي أثناء الحصار توفي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد
وهو الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن
خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار الآن وعليه مسجد
مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا
كثيراً من جنودهم ومراكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان في إفريقية في سنة ٥٠ هـ ولي معاوية عقبة بن نافع
وكان مقبلاً بركة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد
وفتوح فلما استعمله معاوية سار إليه عشرة آلاف فدخل إفريقية وانضاف إليه
من أسلم من البربر فكثرت جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل
عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتدوا
أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون
من أهل البلاد فقصده موضع القيروان وكان دجلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمر ببناء
المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجد ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠
بإع وتم أمرها سنة ٥٥ هـ وسكنها الناس وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل
السرايا فتغير ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من
هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولي على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على أفريقية فولى له يقال له أبو المهاجر فقدم أفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به وهذا من الخل القديم الذي يئن منه المسلمون إلى الآن فإن الخلف كان من الولاة عوضا عن أن يستعين بآراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفيء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم الآن فإنه ما ولي لإنسان عملا بعد رجل آخر إلا أن اجتهد أن يسمى سمعته ويبين للناس أنه لم يكن يحسن أن يسير فيما ولي سيرة رجل عارف بالأمور وكذلك السلف يجتهد أن يخفى عن خلقه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك في إدارته حتى يكزن الأول الاسم وحده والاقة التي عندها مثل هذا الفكر العقيم لا يمكن أن تنجح أو تسود

عاد عقبة إلى الشام وعانب معاوية على ما فعله أبو المهاجر فاعتذرا إليه ووعداه بإعادته إلى عمله وتمادى الأمر حتى توفي معاوية وسننين لكم في خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلى عمله

البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فإنه دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قریش وذو أسنانهم وإنما بقي أبناءهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقدك البيعة . قال أوترى ذلك يتم قال نعم . فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لي بذلك قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة إلى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية ، أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم وفداً عليهم ابنه موسى فقدموا على معاوية فزينوا

له بيعة يزيد فقال معاوية لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوى
عزم معاوية على البيعة ليزيد . فأرسل إلى زياد يستشيريه فأحضر زياد عبيد بن كعب
النخعي وقال ان لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودع وان الناس قد أبدع بهم
خصلتان إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضوع السر إلا أحد
رجلين رجل آخره يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه
وقد خبرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف إن أمير المؤمنين
كتب إلى يستشيرني في البيعة ليزيد وأنه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة
أمر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد
فالق أمير المؤمنين وأذ اليه فعلات يزيد وقال له رويدك بالأمر فأحرى لك أن يتم
لك ولا تعجل فإن دركا في تأخير خير من فوت في عجلة فقال له عبيد أفلا غير هذا قال
وما هو قال لا تنفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه وألق أنا يزيد فأخبره أن
أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وإنك تتخوف خلاف الناس عليه
لهنات ينقمونها عليه وإنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس
ويتم ما تريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الامة فقال
زياد لقد رميت الأمر بحجره أشخص على بركة الله فإن أصبت فما لا ينكر وإن يكن
خطأ فقير مستغش وتقول بما ترى ويقضى الله بغيب ما يعلم فقدم على يزيد فذكر
ذلك له فكف عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة
وأن لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب إلى
مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له إنى كبرت سن وودق عظمى وخشيت الاختلاف
على الامة من بعدى وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن أقطع
أمراً دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم وأعلنى بالذى يردون عليك فقام
مروان في الناس فأخبرهم فقالوا أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألوا
فكتب مروان إلى معاوية بذلك فأعاد اليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم
فقال إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد : فقام عبد
الرحمن بن أبي بكر وقال ما الخيار أردتم لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها
هرقلية كلها مات هرقل قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن عمر

وعبد الله بن الزبير فكتب مروان إلى معاوية بذلك
 وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريب يزيدي ووصفه وأن يوفدوا إليه الوفود
 من الأمصار فكان فيمن أناه محمد بن عمر بن حزم من المدينة والأحف بن قيس
 في وفد أهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية إن كل راع مسئول عن رعيته فانظر
 من تولى أمر أمة محمد ثم أن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمعت
 الوفود عنده إني متكلم فإذا سكنت فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحتني عليها
 فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله
 به من طاعة ولادة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته فقام
 الضحاك لحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أمير المؤمنين أنه لا بد للناس من وال بعدك
 وقد بلونا الجماعة والآلة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيراً
 في العاقبة والأيام هوج رواجع والله كل يوم هو في شأن وي زيد بن أمير المؤمنين في
 حسن هديه وقصد سيرته أعلى ما علمت وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً فوله
 عهدك واجعله لنا دليلاً بعدك ومفرعاً ناجياً إليه ونسكن في ظله : ثم تكلم غيره بمثل
 كلامه فقال معاوية الأححف بن قيس ما تقول يا أبا بجر فقال نخافكم أن صدقنا ونخاف
 الله أن كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم يزيد في ليله ونهاره وسره وعلايته ومدخله
 ومخرجه فإن كنت تعلمه لله والامة رضا فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك
 فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان
 معاوية يعطي المقارب ويداري المباعدين ويلطف به حتى استوسق له أكثر الناس
 وبايعوه فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار إلى الحجاز في ألف فارس فلما دخل
 المدينة خطب الناس فذكر يزيد فدحه وقال من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله
 وموضعه وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أذرت أن
 أغنت النذر ثم أنشد متمثلاً

قد كنت حذرتك آل المصطاق وقات يا عمرو أطفئ وانطلق

إنك إن كلفتنى ما لم أطق ساءك ما سرك منى من خلق

دونك ما استسقيته فاحسن وذق

وكان أولئك نفر الثلاثة قد تركوا المدينة إلى مكة فخرج معاوية إلى مكة وقضى

بها نسكة ثم جمعهم ثلاثهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذي يخاطبه بن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصلي لأرحامكم وحلي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أتم تعزلون وتأمرن وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فقال بن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال أعرضن : قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر : قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قریش ليس من بني أبيه فاستخلفه . وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بني أبيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فإني أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أهدر من أنذر أني كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رؤس الناس فأحمل ذلك فأصفع فإني قائم بمقالة فأقسم بالله أني رد على أحد منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها للسيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه ثم دعا صاحب حرسه بمحضرهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل أحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يتزأمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم ولأنهم قد رضوا وبأبوعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على أني أدخل فيما تجتمع عليه الأمة فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها ونقول أن فكر معاوية في اختيار الخليفة بعده حسن جميل وأنه مادام لم توضع قاعدة لا انتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار فأحسن ما يفعل هو أن يختار الخليفة ولى عهده قبل أن يموت لأن ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الأمة من جور إمامها وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد بالأمر دون الأمة فطالب وفود الأنصار فحضره عند وأجابوه إلى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذي ينقده التاريخ من أمره هو

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الأمة الذين

يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعته أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لاجرم إن كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة يزيد

(٢) مما انتقده الناس أنه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن في الإسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد إن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا إن هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو في الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة وتجعل في أسرة الخلافة النرف والانغماس في الشهوات والملاذو الرفعة على سائر الناس أماراً بنا في ذلك فإن هذا الانحصار كان أمراً احتمالاً لا بد منه لصالح أمر المسلمين والفهم ولم شعهم فإنه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة وإذا انضم إلى ذلك اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب فإن الاختلاف لا بد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم فلو رضى الناس عن أسرة وداؤوا لها بالطاعة واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين أن أعظم من ينتقد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر في آل على ويسوقون الخلافة في بنه يتركها الأب منهم للأبن وبني العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الإسلامية

مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

إن الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماماً يأخذ كل إنسان ماله ويعطى ما عليه فإن تأخر في واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدي الميل لم تكثر بينهم الاختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولاً يخرجهم عن حقيقته التي تدعو الناس إلى التآلف والتآزر والتعاب أما في هذا العهد فإن الأمة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكادت السياسة التي حكموا بها شديدة قاهرة حتى سهل

إمراق الدماء ألا ترون إلى زياد وما كان يفعله فإنه قتل ذلك الأعرابي الذي أخذ من الجامع مع اعتقاد زياد صدقه ولكنه قال إن في قتلك صلاحا للرية . لا تنكر أن معاوية نفسه كان سهلا لنا يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حله الواسع ويجب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن أنها تصلح القلوب وإنما تخفف الالم من الأمة تخفيفاً وقتياً

ومما تنقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلى على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى بأمره وكان يعلم يقيناً أن هذه الأقوال مما يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأفقون ويتذمرون ولا ندري ما الذي حمله على أن جعل ذلك فرضاً حتماً في كل خطبة كأنه ركن من أركانها لا تتم إلا به .

من المحدثات الجليلة التي حدثت في عهد معاوية البريد بمعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعاً حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعلماء في أسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً وتسمى هذه المسافة بريداً . وروى ياقوت في معجم البلدان أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل سألتها عن سبب بطئها فشكوا من متروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاوتهم فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكرر أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمزون به ليزيحوا عنهم في سيرهم ففعل بريد أي قطع فمرب ففعل خيل البريد . وقال ياقوت إنه روى هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح في القياس والنظر

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين وإنما اتخذ بعد أن كان ما كان من إرادة الخارجي قتله

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر عمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسها فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث

معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم
كان كاتب معاوية سرجون الرومي لأن ديوان الشام كان لعهد بالرومية ويظهر أنه
كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولا
وقاضيه فضالة بن عبيد الأنصاري ثم أبو إدريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي
الشام وكان لكل ولاية قاض خاص

بيت معاوية

(١) تزوج ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة التوفلي
فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيراً (٣) نائلة بنت عمارة
الكلاية وهذه طلقها (٤) كتوة بنت قرظة أخت فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق في جمادى الثانية وكان يزيد ابنه غائباً فحضر معاوية الضحاك
ابن قيس ومسلم بن عقبة المري وأدى إليهما وصيته إلى يزيد وكان فيها (يا بني إني قد
كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذلك لك الأعداء وأخضعت لك رقاب
العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك
منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن
عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا إبطاتك
وغيبتك فإن رابك من هدوك شيء فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فانهم
إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة
من قريش الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر
فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين
ابن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت
به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحفاً عظيماً وقرباً من محمد صلى الله عليه وسلم .
وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همه إلا في النساء
واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو
فعلها فظفرت به فقطعه إرباً إرباً واحقن دماء قومك ما استطعت) ثم مات بدمشق

لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ إبريل سنة ٦٨٠ م) نخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن معاوية كان هو والعرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو المخرج إلى يوم القيامة فمن كان يريد أن يشهده فعنده الأولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر إلى يزيد فقال في ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس يخب به	فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم	قال الخليفة أمسى مثبنا وجعا
ثم انبعثنا إلى خوص مزمنة	نرى الفجاج بها لانا تلى سرعا
فادت الأرض أو كادت نمد بنا	كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفي على شرف	توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق	وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئا بعد طيرته	والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه	كأنا جميعا فساتا قاطنين معاً
أغز أبلج يستسقى الغمام به	لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الأول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحيرة
حصار مكة — الفتوح في عهد يزيد — بيته ووفاته

٢ — يزيد الأول

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأمه ميسمون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان قترى في حجر الإمارة ولما شب في خلافة أبيه

كان يرثه الإمارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأول مرة وكان مغرماً بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس إذ ذاك لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الإسلامي بعد كيفية انتخابه

عهد إليه أبوه بالخلافة من بعده بعد أن استشار في ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس ولم يتخاف من البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن علي وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر : فلما توفي معاوية لم يكن يزيد إلا ما يعتمهم له فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسناً وعبد الله ابن عمر وابن الزبير أخذوا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أناه نعى معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل إلى هؤلاء النفراً ما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم على معاوية وقال أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سرا ولا يجتري بها منى سرا فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودهوتنا معهم كان الأمر واحداً فقال له الوليد وكان يحب العافية أنصرف فأنصرف وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال إني عائد بالبيت ولم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض في الحج بإفاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن علي وأخذ معه بنيه وإخوته وبني أخيه إلا محمد بن الحنفية فإنه أبي الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فإنه قال إذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس

حادثة الحسين

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندهما عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأى وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لأن أهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين بالبلد : لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا يزيدوا اجتمعت الشيعة إلى منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه

ليبايعوه فكتبوا اليه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب اليهم (أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتضتكم وقد بعثت اليكم يا أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالك وأمركم ورأيكم فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى مائتكم وذوى الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسالتكم أقدم اليكم وشيكا إن شاء الله فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله وكتبان أمره واللفظ فإن رأى الناس مجتمعين عجل اليه بذلك فصار مسلم نحو الكوفة وأمرها النعمان بن بشير الأنصارى فأقبلت اليه الشيعة تختلف اليه . ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال وكان النعمان حليماً ناسكاً يحب العافية ثم قال إني لا أقاتل إلا من يقاتلنى ولا أثب على من لا يثب على ولا أنبه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم إن أبديتهم صفحتكم ونكتهم يبعثكم وخالفتهم إمامكم فوالله الذى لا إله إلا هو لا ضربتكم بسيفى مائت قائمه ييدى ولو لم يكن لى منكم ناصر ولا معين أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل فقام اليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له إنه لا يصاح ماترى إلا الغشم إن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون من الأعزى فى معصية الله ونزل . فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يخبره بقدم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول إن كان لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلاً قرياً ينفذ أمرى ويعمل مثل عملك فى عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد الله بن زياد أمير البصرة فجعله والى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال (أما بعد فإن أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم وفيثكم وأمرنى بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم كالوالد البر وللمطيعكم كالأخ الشفيق وسبى وسوطى على من ترك أمرى وخالف عهدى فليق امرؤ على نفسه) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً وقال اكتبوا لى

الغرياء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين
دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم إلى برئ ومن لم يكتب لنا أحدا فليضمن لنا ما في
عرافته أن لا يخالفنا فيهم بخالف ولا يبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة
وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم
لم يرفعه الينا صلب على باب داره ألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعان الزارة
سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهاني بن عروة المرادي فأجاره متكرهين وصارت
الشيعة تختلف إليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هاني فاستقدم هانئا فقدم عليه
ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فقال هاني وما ذاك فقال يا هاني ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمر المؤمنين
والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك
يخفي لك وقد أراد هاني أن ينكر فلم يجد إلى الإنكار سبيلا فطالب منه ابن زياد
أن يسلم إليه مسلما فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه
بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه بشعارهم يا منصور وكان قد
بايعه ثمانية عشر ألفا وحوله في الدور أربعة آلاف فاجتمع إليه ناس كثير فعباهم
وأقبل إلى القصر فأحاط به وامتلاء المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع
ابن زياد إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون رجلا من الأشراف وأهل بيته
ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج
فيمن أطاعه من مدحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث
أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل
ذلك غيره من الأشراف وأبقى عنده بعضهم استئناساً بهم فخرج الذين أمروا بالخروج
يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر على الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل
المعصية ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل في المسجد
إلا ثلاثون رجلا فخار في أمره أين يذهب واختفى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل
إليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث إني أراك تعجز عن أمانتي فهل
تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل

بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيه الذي كان فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الأشعث ولما جرى بمسلم إلى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانيء بن عروة المرادى أما أمر الحسين فإنه لما عزم على المسير إلى الكوفة جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني أنك تريد العراق وإني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمرأؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقا تلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه من يقا تلك معه فجاءه الحسين خيراً . وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرني ما أنت صانع . فقال قد أجمعت المسير في أحد يومى هذين فقال له ابن عباس أهيك يا لله من ذلك خبرني رحلك الله أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبى بلادهم فإنما دعوك إلى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك فقال الحسين فإني أستخير الله وأنظر ما يكون . ثم جاءه ابن عباس ثانياً يوم فقال يا ابن عم إني أنصبر ولا أصبر إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستتصال إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم أقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعاباً وهى أرض عريضة طويلة ولا يبك بها شيعة وأنت عن الناس فى عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعائك فإني أرجو أن يأتبك عند ذلك الذى تحب فى عافية . فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصديتك فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونسأؤه وولده ينظرون إليه فلم يفد كلامه شيئاً . ثم سار بأهله وأولاده فقا بله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله عن خبر الناس فقال له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء . ثم جاءه كتاب من عبدالله بن جعفر يقسم عليه فيه بالله إلا ما أنصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الأمان له ويسأله الرجوع فأبى وتم على وجهه فقا بله عبدالله بن مطيع هو لمسا علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك أنشدك الله

في حرمة العرب فوالله لئن طلبت مافي أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لايهابون بعدك أحداً والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبني أمية فأبي إلا أن يمضي

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه نشدك الله إلا مارجعت من مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل تخوف أن يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله إلا ما انصرفت فوالله ما تقدم إلا على الآسنة وخذ السيف إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوكه وثنة القتال ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً فأتا على هذه الحال التي تذكر فلا أرى أن تفعل فأبي أن يرجع ولما ترك شراف قابله خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين أيها الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم إنني لم آتكم حتى أتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى فقد جئتمكم فان تعطوني ما أطمئن إليه من عهدكم أقدم مصركم وإن لم تفعلوا كنتم لمقدمي كارهين انصرفت منكم إلى المكان الذي أقبلنا منه فلم يجيبوه بشيء في ذلك ثم قال له الحراما أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى إليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فأنهزم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ما تريد فقال أما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالشكل كائننا من كان ولكني والله مالى إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه ثم صار الحر يراقبه حتى لا يتمكن من الانصراف إلى المدينة فسار الحسين يتجه إلى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل الحسين رسولا يسأله ما الذي جاء به فقال الحسين كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فلما أذكرهوني فاني أنصرف عنهم فكتب عمر إلى ابن زياد بذلك فقال

الآن إذ عرضت مغالبنا به يرجو النجاة ولالة حين مناص

ثم كتب إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين يبعة يزيد فاذا قبل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعه هو ومن معه الماء : وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوهم يرجع إلى المكان الذي خرج منه وليس بصحيح أنه عرض عليهم أن يضع يده في يد يزيد

فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الأمر فلم يكن إلا القتال وفي عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذي لم يكن فيه أحد من أهل الشام وهذه الفئة القليلة ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن إلا قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعمون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها إلى ابن زياد ومعها بنات الحسين وإخوته ومعهم على بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان إلى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا قال أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحتاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمى فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمى وأما قوله جده خير من جدى فلعمري ما أحديث من بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فأدخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا اتهمن وأقمن المأثم وسألن عما أخذ منهن فأضعفهن ثم قرب إليه على بن الحسين وجهازهن بعد ذلك إلى المدينة وقال لعلى يا بني كاتبنى بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر في العواقب فإن الحسين بن علي رعى بقول مشيريه جميعا عرض الحائط وظن بأهل العراق خيرا وأهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيرا منه وأكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الاعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى في آخر حياته الخلاص منهم . أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان في العراق عماله وأمرأؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر لحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربه هل كان إلا من أهل العراق وخدم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة على بن أبي طالب وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيما في خروجه هذا الذي

جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها : غاية ما في الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتبأ له ولم يعد له عدته فخل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكتّاب ومن يشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا وقد ذهب الجميع إلى ربههم يحاسبهم على ما فعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظام الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما أنه لا بد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فإنه خالف على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف

وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هي في نظرنا أدهى وأشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهم بط الوحى الإلهى وهي التى حرّمها عليه السلام كما حرم إبراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة أحدهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى فكيف بانتهاك حرمتها معاً في سنة واحدة

أما حادثة المدينة فإنه في عهد إمارة عثمان بن محمد أبى سفيان عليها أوفد إلى يزيد بدمشق وفداً من أشرف أهل المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة الأنصارى وعبدالله ابن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرهمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلاً عابداً سيّداً مائة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف فلما قدموا إلى المدينة أقاموا في أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله ابن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصارى إلى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم إنكم لا طاقة لكم بأهل

الشام فلم تجد نصيحته نفعا فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال ممثلا

لقد بدلوا الحكم الذي في سيجتي فبدلت قومي غلظة بليان
وحيثذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المزني وكان عدة من تجهز معه
اثنا عشر الفا وقال له يزيد ادع القوم ثلاثا فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإن ظهرت
عليهم فأبجها ثلاثا فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجد فإذا
مضت الثلاث فأكف عن الناس وانظر على بن الحسين فأكفف عنه واستوص به
خيرا فإنه لم يدخل مع الناس ولأنه قد أتاني كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل
المدينة الخبر شددوا في حصار بني أمية ولم يفكروا عنهم الحصار إلا بعد أن عاهدوهم
أن لا يبغيهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدوا وبذلك جعلوهم
يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادي القرى فدعا بعمر بن عثمان وقال
له ما وراءك فقال لا أستطيع فقد أخذت علينا اليهود والمواثيق أن لا ندل على
عورة ولا نظاهروا فأنهره وقال والله لو لا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل
عليه عبد الملك بن مروان فقال مات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فإذا انتهيت إلى
ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من تمره فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركت
المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيتهم من قبل الحرة مشرقا ثم تسبق القوم فإذا استقبلتهم
وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم إذا هاورون
من ائتلاق يبيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ماداموا مغربين
سم قاتلهم واستعن بالله عليهم . ثم دخل عليه مروان فقال إيه فقال مروان أليس قد
دخل عليك عبد الملك قال بلى وأي رجل عبد الملك فلما كلمت من رجال قريش رجلا
شبيها به قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال إن أمير
المؤمنين يزعم أنكم الاصل ولاني أكره إرافة دمائكم ولاني أؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى
وراجع الحق قبلنا منه وانصرف عنكم وسرت إلى هذا المحل الذي بمكة وإن أيتم
كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جدا ولاكن

انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون المغانم والأموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة يزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلي بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣ وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظاهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيتكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية . إنهم فتقوا فتقوا وارتكبوا جرماً فعلهم جزءاً عظيماً من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يعمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال إن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين . بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا وإننا مودع بالله من الروس التي إذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل حصار مكة

وثالثة الحوادث التي معظم تبعتها على عبد الله بن الزبير حصار مكة فإن مسلماً انتهى من أمر المدينة سارقاً صاعداً مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زباع الجذامي وقد أدركت المنية مسلماً بالشال فاستخلف على الجند الحصين بن نهير كأمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنظلي الخارجي لمنع البيت : فخرج ابن الزبير بمقاء أهل الشام خارجهم حرباً انكشف فيها أصحابه فسار راجعاً إلى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال : هذه ثلاث

كبرى داخلية حصلت في أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروها حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعته بل إن الذي يتحمله جزء صغير منها لأنه خليفة بإيعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عمة قلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وإنما الذي عليه تلك الشدة التي أجزتها جنوده بعد أن تم لها النصر

الفتوح في عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على إفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والاموال ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة فحاصروهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الراب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصده مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع من بهام الروم فقاتلهم الجنود الإسلامية حتى هزمهم ثم رحل إلى تاهرت : فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقبه بطريق رومي اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقبه البربر في جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفاً منه ولما وصل إلى مدينة طلبة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهوذا لينظر إليها في نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعو فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وكان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي المهاجر فلما جاء عقبة وأسأه إلى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه فتهاون به فقبه فلما رأى الروم قلة من مع

عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر
عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر
اتفق مع الروم فهاجوا المسلمين وقتلوه فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد
وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان في القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة عليها فأراد
القتال فلم يطعه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقام بها
أما كسيلة فإنه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانفال والذراري
من المسلمين واستولى على إفريقية وسنين ما كان من أمره بعد

وفاة يزيد

لأربع عشر خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣) توفي
يزيد بن معاوية بحدوران من أرض الشام وسنة تسع وثلاثون سنة ومدة خلافته
ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ويكنى أبا هاشم.
وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله وكان أرمي العرب وكان له من
الأولاد عبد الله الأصغر وعمر وأبو بكر وعتبة وحرب وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى.

المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثانى — عبدالله بن الزبير — حال الشام مروان الاول
عبد الملك — تغلبه على ابن الزبير وقتله — الحجاج بالعراق

معاوية الثانى — عبدالله بن الزبير

بعد موت يزيد كانت بيعتان أحدهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بمكة والحجاز
لعبدالله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنة إحدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد
موت أبيه إلا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال (أما بعد فأنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن
الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم
فأنتم أولى بأمركم فاخاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ثلاثة
أشهر من خلافته

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم ير من نفسه
القدرة على لم شعثها وإصلاح أمرها

أما ابن الزبير فإن يزيد مات وحصين بن نمير محاصره وقد اشتد الحصار عليه فجاءه
الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فتداه علام تقاتلون وقد ذلك طاغيتكم فلم
يصدقوه ولما وصل الخبر الحصين بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما
قال له أنت أحق بهذا الأمر لم فلنبايعك ثم أخرج معنا إلى الشام فإن هذا الجند
الذين معى هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر
هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له أنا لأهدر الدماء والله
لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحصين يكلمه سرا وهو يجهر
ويقول والله لا أفعل فقال له الحصين قد كنت أظن لك رأيا وأنا أكلبك سرا وتكلمنى
جهرأ وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل إلى

المدينة قالشام فوصلوها وقد برع معاوية بن يزيد

هذا حال الشام لا إمام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان هيب الله بن زياد لما بلغه نفي يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال يا أهل البصرة إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدى فيكم ولقد وليتكم وما يحصى ديوان مقاتلكم إلا سبعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة ألف وما كان يحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم وإن يزيد قد توفى واختلف الناس بالشام وأتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاخترأوا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راضٍ من رضيتهم فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيه فيما دخل المسلمون وإن كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضى حاجتكم فإبكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغنى الناس عنكم : فقالوا له قد سمعنا مقاتلك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فلهم فلنباعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون أيقظ ابن مرجانة أنا تنقادله في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه : ولما علم أهل البصرة بإيائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه إلى ذلك أكثرهم وضمف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحارث بن قيس الأزدي ثم بمسعود ابن عمرو سيد الأزدي فأجأه حتى هرب إلى الشام : واختار أهل البصرة واليا عليهم هيب الله بن الحارث بن نوفل الملقب ببيبة فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الإمارة وذلك أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ . وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أمير وكتب أهل المصريين إلى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده : وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق إلا الشام

حال الشام

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم : وكان أمير دمشق الضحاك بن قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعوه وأمير حمص العمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلبي وهوام كلهم في ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين

حسان بن مالك الكلبي وهو اه في بني أمية وقد بايعه على الدعوة لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وعالداً ابني يزيد لأنهم قالوا إنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان إلى الضحاك بن قيس كتاباً يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلاغتهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتاباً آخر سله لرسوله وقال له إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلا فقم وأقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشارهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو إلى ابن الزبير وكلب تدعو إلى بني أمية

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجاية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه ثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجاية إلى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلاً في موطن قط وكانت الواقعة في المحرم سنة ٦٥ : ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت إليه قيس وقد صحبه في هزيمة شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان بطلبه فقال الشابان لزفر أنج بنفسك فإننا نحن نقتل فضي وتركهما مقتلاً وقال زفر في ذلك

أريني سلاحى لا أبالك لمتى • أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه • مقيد دى أو قاطع من لسانيا
ففى العيس منجاة وفى الأرض هرب • إذا نحن رفنا لهن المائيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا • ولا تفرحوا إن جئتم بلبائيا
فقد يثبت المره على دمن الثرى • وتبقى حزازات النفوس كما هيا

أذهب كلب لم تنلها رماحنا • وترك قتلى راحط هي ماها
لعمري لقد أبقت وقية راحط • لحسان صدعاً بيننا متائيا
أبعد ابن عمرو وابن ممن تابعا • ومقتل همام أمني الأمانيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه • فرارى وتركى صاحبي ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أرى • من الناس إلا من على ولا ليا
أذهب يوم واحد إن أسأته • بصالح أياي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا • وتثار من نسوان كلب نسايا
ألا ليت شعري هل تصيبنّ فارقي • تنوغا وحي طي من شفايا

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتحها وبايعه أهلها ثم عاد إلى دمشق فأقام بها

لم تطل مدة مروان في سلطانه فإنه توفي في رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان في عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومدبراً وولى معاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فإنه أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بنى أمية. فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الأمر بعد وقعة مرج راحط وكان أمره في الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولى أمر الأمة من بعده ابنه

٥ — عبد الملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية ابن الوليد بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ولما شب كان عاقلاً حازماً أديباً ليلاً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي

ماذا كرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإني ماذا كرت حديثاً إلا زادني فيه ولا شعراً إلا زادني فيه

ولي الخلافة بعد أبيه بعهده منه وكانت الحال في البلاد الإسلامية على غاية الاضطراب فإن الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته وشيعة تدعو إلى آل البيت وخوارج وهم من عرقهم حديثهم قبل فتاى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي فسا زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً في أهل الشام فقال إن الله قد أهلك من رموس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صرد ألا وإن السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريق وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الأزدي وعبد الله بن وال البكري ولم يبق بعدهم من عنده امتناع

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان وثوبه بها رابع شهر ربيع الأول سنة ٦٦ فأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد الله ابن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذي أرسله للأخذ بثار

الحسين ولقبه بالإمام المهدي وكان هذا التلقب أول ظهور كلمة المهدي في عالم الوجود وكان يود أن يتبعه على رايه إبراهيم بن الاشر ل قوة بطشه وسمو شرفه فأرسل إليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الأمر فقالوا له إن المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه إليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية إلى ابن الاشر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي إلى إبراهيم ابن مالك الاشر) فقال إبراهيم قد كتبت إلى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب إلى فلم يكتب إلا باسمه واسم أبيه قال المختار ذاك زمان وهذا زمان قال ابن الاشر فن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب في التاريخ الذي بيناه . ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون بالثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقاتل المحلين والدفع عن الضعفاء وقاتل من قاتلنا وسلم من سلمنا ثم بعث العمال على أمصار الكوفة وكان من أم الأمور لديه انتخاب جيش يوجهه إلى قتال ابن زياد الذي أرسله عبد الملك لافتح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعاً ومنهم عمر ابن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث ثم دخلت في بيعته البصرة وكان عمل المختار سبياً لتغيير ابن الزبير على محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليأبوعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل إليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج إلى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بدا له فعاد إلى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب إلى الطائف وأقام بها

ثم إن المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم إبراهيم بن الاشر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الاشر وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الاشر العمال إلى البلاد الجزرية بعد أن تم الأمر للمختار ولي ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم تلك آيات الكتاب المبين تلوا

عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين) وأشار نحو الشام - (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض) - وأشار نحو الحجاز - (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة - وقال يا أهل البصرة بلغني أنكم تاقبون أمراءكم وقد لقيت نفسي بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشرف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه لجند مصعب جنداً عظيماً قاده بنفسه ومعه أشرف المصريين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فأتدب له جنداً قايلاً مصعباً عند المذار وكان النصر لمصعب فانزعم جند الكوفة فصار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقلاً فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة

إن من أعجب العجائب عندي قتل يضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم إن لله درهما من قتييل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكانه يشدنا حيث يقول
إذا ما أراد الغزو لم يشن هممه حصان عليها عقد دُرّ يزينا
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكى وبكى مما عناها قطينا

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعباً فتجهز له وجعل على مقدمته إبراهيم ابن الأشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق الذين كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد

وإن الآلى بالطف من آل هاشم نأسوا فسنوا للكرام التأسيا

وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء
وولى على المصريين عمالا من قبله قال بعض الشعراء في مقتل مصعب

حى أنفه أن يقبل الضيم مصعب فات كريما لم تدم خلائقه
ولو شاء أعطى الضيم من رام مضمه فعاش ملوما في الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خاله يشاوره مرأ ومرأ يعانقه
فولى كريما لم تنله مذمة ولم يك وغدا تطيه نمارقه

بذلك لم يبق خارجا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً
إلى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبد الله بن الزبير فسار إليه في جمادى
الأولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الأمر
على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فنفروا عن ابن الزبير وخرجوا
بالأمان إلى الحجاج وكان ممن فارقه أبناء حمزة وحبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم
يبق معه إلا قليل لا يغنون عنه شيئا دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال يا أماء
خذنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من
صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك إن
كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من
رقتك يتلعب بها غلبان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلك
نفسك ومن قتل معك وإن قتلت كنت على حق فلما أدهن أصحابي ضعفت فهذا ليس
فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن . فقال ؛

يا أماء أخاف إن قتلتى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبوني : قالت يا بنى إن الشاة
لا تتألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأي والذى
خرجت به دائماً إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ومادعاني
إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرما ته ولكننى أحببت أن أهلك رأيك فقد
زدتني بصيرة فانظري يا أماء فإني مقتول يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلى الأمر
إلى الله فان ابنك لم يتعهد إيثار منك ولا عمل بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر
فى أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغنى ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته
ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى . اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكنى أقوله

تعزية لأمي حتى تسلو عني فقالت أمه لارجر أن يكون عزائي فيك جيلا أن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك فقال جزاك الله خيرا فلا تدعى الدعاء قالت لا أدعه لك أبدا فن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثا وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنه بويص له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير حضا الأمر لعبد الملك في جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة وبقي الحجاج والياعلى مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبد الملك عنهما وولاه العراقيين فصار إلى الكوفة في اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو مثلث بعمامة خز حمر فأجمع إليه الناس وهو ساكت قد أطل السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه ثم كشف اللثام عن وجهه وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة إني لأرى رؤسا قد أيّعت وحن قاطفها وإني لصاحبها وكأني
أنظر إلى الدماء بين العمام والمحي ثم قال

هذا أوان الشد فاشتدى زيم^(١) قد لفها الليل بسواق حطام^(٢)
وليس براعى إبل ولا غنم ولا يحزار على ظهر وضم^(٣)
ثم قال :

قد لفها الليل بعصلي^(٤) أروع^(٥) خراج من الذوى^(٦)
مهاجر ليس بأعرابي
وقال قد شمّرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم لجدوا
والقوس فيها وترعرد^(٧) مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد

- (١) يعني فرسا أو ناقة (٢) الحطام الذي لا يبقى من السير شيئا
(٣) الوضم كل ما قطع عليه اللحم (٤) الشديد (٥) ذكى
(٦) الصحراء الواسعة التي تسمع بها دويا بالليل ويريد بها الغناء الشديدة
(٧) شديد

إني والله يا أهل العراق ما يقع على بالشنان ^(١) ولا يغمر جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاه ^(٢) وقتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنياته بين يديه فجمع ^(٣) هيدانها فوجدني أمراً عوداً وأصلها مكسراً فرماكم بي لأنكم طالموا أوضعتم ^(٤) في الفتنة واضطجعت في مرقد الصلال والله لا حزمكم حزم السلة ولا ضربكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وإني والله ما أقول إلا وفيت ولا أم إلا مضيت ولا أخلق إلا فريت وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئاً فقال الحجاج أكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نبيه ^(٥) أما والله لاؤدبنكم غير هذا الأدب أولتستقيم من اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم فلم يبق أحد في المسجد إلا قال على أمير المؤمنين السلام ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبراً فقال أيها الأمير إني من الضعف على ما ترى ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني فتقبله بدلاً عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولي قال قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن ضابيء البرجمي الذي يقول أيوه

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبسكي حلالة ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال أيها الشيخ هلا بعثت إلي أمير المؤمنين عثمان بدلاً يوم الدار إن في قتلك.

- (١) وأحدها شت وهو الجلد اليابس فإذا ضرب به نفرت الإبل فحضر ذلك مثلاً لنفسه (٢) الذكاء حدة القلب (٣) مضغها لينظر أيها أصلب (٤) الإيضاع ضرب من السير (٥) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج

أيها الشيخ صلاحاً للمسلمين يا حرسى اضربن عنقه لجعل الرجل يضيق عليه أمره
فيرتحل ويأمر وليه أن يلبسته بزاده ففي ذلك يقول عبدالله بن الزبير الأسدي
تجهز فأما أن تزور ابن ضابي عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوايا من الثاج أشهبها
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هي أقربا

من هذه الخطبة وماتلاها تتبين خطة الحجاج التي أراد أن يسوس بها أهل العراق
وهي خطة العسف والجور التي قدمنا أنها لا تصلح أمة لإصلاحاً حقيقياً أبداً وإنما
تضع على الرجل غطاء لا يلبث البخار أن يقتاعه ويطير به وتتبين حال أهل العراق
وسكونهم إلى هذه الذلة يجيئهم الحجاج في بضعة عشر ركباً وفيهم الأشراف
والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم
عليه قولاً ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم
الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر عما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقتي
وبعد ذلك ذهب إلى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فأتى برجل
يشكرى فقال أيها الأمير إن بي فتقا وقد رآه بشر بن مروان فعذرتني وهذا عطائي
مردود في بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففرغ لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى
تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج الحجاج حتى نزل رستفابان في أول
شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة وكان بيده وبين المهلب ١٨ فرسخاً فقام في
الناس فقال إن الزيادة التي زادكم بها ابن الزبير في أعطياتكم لست أجيزها فقام إليه
عبدالله بن الجارود العبدى وقال إنها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين
عبد الملك أثبتنا لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس
فقاتله الحجاج حتى قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برؤوسهم إلى المهلب وهو
يقاتل الخوارج وانصرف إلى البصرة

في سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيدالله بن أبي بكر سجستان فزار تبيل وقد كان مصالحا
وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج
إلى ابن أبي بكر يأمره بغزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك معظمهم ونجا أقلهم
فراى الحجاج أن يجهز إليهم جنداً كشيء الفجهر عشرين ألفاً من البصرة ومثلهم من الكوفة

وجد في ذلك وشمر وأعطى الناس أعطيانهم كلاً وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولا يرى رجلاً تذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته ولما استتب أمر دينك الجند بن ولي عليهم عبدالرحمن بن الأشعث فسار حتى قدم بجمستان فصعد منبرها وقال أيها الناس إن الأمير الحجاج ولا في ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد أخياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة أخرجوا إلى معسكركم فمعسكروا به مع الناس . فمعسكر الناس في معسكرهم ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتى دخل أول بلاد رتييل وصار كلها حوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد وجعل الارصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول في أرض رتييل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجيبها ونعرفها ويحتري المسلمون على طرقها ثم تتعاطى في العام المقبل ما وراها ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ثم لانزایل بلادهم حتى يهلكهم الله وكتب إلى الحجاج بما كان برأيه فكتب إليه الحجاج أما بعد فإن كتابك أناني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى الموائد قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغلناؤهم في الإسلام عظيماً لعمر كيا ابن أم عبدالرحمن أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندی وحدي لسخي النفس عن أصيب من المسلمين إنني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكني رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والنيث رأيك فاهض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم وقال في كتاب آخر إن لم تفعل فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس نخله وماوليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضى أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه نخلوه وبايعوا على ذلك عبدالرحمن فبعث إلى رتييل فصالحه وعاد من بجمستان إلى العراق مصمماً على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعشى همدان يقول

شطت نوى من داره بالإيوان • إيوان كسرى ذى القرى والريحان
من عاشق أمسى بزايلستان • أن ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضى وكذاب ثان • أمكن ربي من ثقيف همدان
يوماً إلى الليل يسلى ما كان • إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان • بالسيد الفطريف عبدالرحمن
سار بجمع كالديء من قحطان • ومن معه قد أتى ابن عدنان
بمحفل جم شديد الارنان • فقل للحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذبح وحمدان • فإنهم سقوه كأس الديفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض إذا خلعنا الحجاج فعدخلنا عبدالملك
تخلعوه وباعوا عبدالرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين : ولما
بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبدالملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه فهاله الأمر
وبادر بإرسال الجنود الشامية إليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود إليه سار
بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج
يوم الأصبى سنة ٨١ وأنت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعاً حتى نزل الزاوية وجاءت
جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله إليها في آخر ذي الحجة سنة
٨١ ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثى على ركبته
وانتضى نحو آمن شبر من سيفه وقال الله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان
ذلك العمل بمقاوى قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل منهم عدد وافر فضى
ابن الأشعث إلى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل دبر قرى
وخرج ابن الأشعث حتى نزل دبر الجاجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار عبدالملك
مشيرواً أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فإن قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم
فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبدالله ليعرضا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع
الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وإن أبوا فالججاج
أمير الناس لحاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع
عبدالملك وحينئذ قال محمد بن مروان وهب الله ين عبدالملك للحجاج شأنك بعسرك

وجندك فاعمل برأيك فإننا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين واقعة يدير الجاهل هائلة استمرت مائة يوم وكانت نهايتها في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣٣ ففقه هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادى المنادى من رجع فهو آمن : وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبأيعوناه فلا يرضى مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج إني أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال أخادعي أنت من نفسي أما أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد . كان الحجاج قد أمر فودي بعد هزيمة دير الجاهل من لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو أمانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي ففقه العراق فذكره الحجاج يوما فقل له إنه لحق بقتيبة فأرسل إليه يأمره أن يبعث إليه بالشعبي فأرسله فلما قدم سلم عليه بالإمرة ثم قال أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقا والله سودنا عليك وحررنا وجهنا عليك كل الجهد فما ألوانا فمنا كونا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظهرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرك إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلك وبعد الحجة لك علينا فقال له الحجاج أنت والله أحب إلى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دماء ثنائمه يقول ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف فلما شئ قليلا ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس يا شعبي بعدنا فقال أصاح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجنب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفا قال انصرف يا شعبي وجيء إليه بأعشى همدان فقال إيه يا عدو الله أنشدني قولك بين الأشج وبين قيس باذح قال بل أنشدك ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحها أولها :

أبي الله إلا أن يتمم نوره	ويطفيء نور الفاسقين فيخمدا
ويظلم أهل الحق في كل موطن	ويعدل وقع السيف من كان أحيدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله	لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من روعة وعظيمة	من القول لم تصعد إلى الله مصعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة	إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهي قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلى الجملة فإن فتنة ابن الأشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم

فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم

أما ابن الأشعث فقد تقلبت به الاحوال و انتهى أمره إلى أن توجه إلى رتبيل مستغيثاً به فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فسات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وأرسل بالرؤوس إلى الحجاج

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهي مصابة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراهم الله في أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في غمارها ولا تخلى ولاه أمرها من تبعة تلك الحوادث فإنهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ويكرهوها على الطاعة إكراها من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشيء مما تحبه

من الضروري أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج في هذه المدة لتكون صورة الأمة كلها ممثلة أمام أنظاركم في ذلك العهد

المحاضرة السادسة والثلاثون

الخوارج

لما وردت جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير في عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق الحنفي أن يذهبوا إلى ابن الزبير لينعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاربهم أم يخالفهم فلما جاءوه وعرفوه بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده فدخلوا عليه وهو مبتذل فقالوا إنا جئناك لتختبرنا رأيك ما تقول في الشيعين قال خيراً قالوا فما تقول في عثمان الذي أحى الحى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بغير

المسلمين . وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير نائب . ولا نادم وفي إليك وصاحبه وقد باعنا عليا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجنا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها . أن يقرن في بيوتهن وكان في ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلنى عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا النصر رأيك الأول وتصويب إليك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته خذلك الله واتصر منك بأيدينا فقال ابن الزبير إن الله أمر وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما في فرعون (فقلوا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤذوا الأحياء بسب الاموات فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجناد في المحاربة والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنباً وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميت فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كنا منهم دخلاً في غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للؤمن في أبويه (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) وقال جل ثناؤه (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذي دعوتهم إليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمري إن ذلك لا حرج به قطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه

فلما كان العشي راوحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطائفة إلى اليمامة فكان من سار إلى البصرة نافع بن الأزرق في أصحابه وقد أمره عليهم ثم مضى بهم إلى الأهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحداً أو يناظرهم الناس وطرده أعمال السلطان عنها وجبوا إلى . ولم يزل الخوارج على رأي واحد حتى ظم من نافع ابن الأزرق القول بأكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة وقال الداردار كفر

إلا من أظهر إيمانه ولا يحمل أكل ذبائحهم ولا تاركهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلياً أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقبة لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بهس هيصم بن جابر الضبي وعبدالله بن أباض المري . أما أباض ومن نحا نحوه من النجدية فإنهم كانوا يقولون إن عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نحرّم منا كحتهم وموارثهم لأنّ معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كمار للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسما صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبدالله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بهس فإنه قال أعداؤنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم وزعم أن منا كحتهم وموارثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكهم عند الله حكم المشركين وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق وأباضية أصحاب بن أباض وبهسية أصحاب أبي بهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

أقام نافع بن الأزرق بالاهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فإذا أجيب المقالة جبا الخراج وفشا عماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلى الاحنف ابن قيس وقالوا ليس يذنا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ماترى فقال الاحنف إن فعلهم في مصركم إن ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عيسى بن كرز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وآضاروا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة بن عيسى نافع بن الأزرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر بن الغدافي وولى أمر أهل البصرة الخوارج عبيدالله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بني يربوع فاقتلوا قتالاً شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الخيمري فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعدوا بالآلات الدروع والجواشن حتى انهزموا وقد كره بعضهم

بعضاً وملوا القتال فانهم لتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم في حماهم وأهل البصرة منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالاهواز وما قاله بعض الخوارج وهو قطري بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر

لعمرك إني في الحياة لزاهد	وفي العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفراء البيض لم ير مثلها	شفاء لذي بث ولا لستيم
لعمرك إني يوم أطم وجهها	على نائبات الدهر جد لثيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان قتي في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدما	وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الازد في حومة الوغى	تعوم وظلنا في الجـلاد نعوم
فلم أريوما كان أكثر مقعصا	يمسج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خدأ كريماً على قتي	أغر نجيب الامهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطأ	له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا	تيسح من الكفار كل حريم
رأت فنية باعوا الإله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا لأمر الخوارج إلا المهاب ابن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضى بشرط أن يكون له ولاية ماغلب عليه وأن يعطى من بيت المال مايقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوى الشرف من أحب أجاوبه إلى ماشرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا إلى منزل من الاهواز يقال له صلى وسابري فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتلواهم والخوارج حتى كاد أهل البصرة يهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه فإن ذلك قوام حتى قتل أمير الخوارج عبيد بن الماحوز وأنهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان . وكتب المهلب إلى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة . بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإنا قد لقينا الازارقة المارقة

بحد وجد فكانت للناس جولة ثم تاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا درة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها والسلام فكتب إليه الحارث : قد قرأت كتابك يا أبا الأزد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادم أركان المشركين وأخا السياسة والرياسة فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام . فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال أما تظنون أنه يعرفني إلا بأخ الأزد . ما أهل مكة إلا أعرب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبد الله . فلما ولي مصعب العراق استقدم المهلب وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولي مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بأرجان وعليهم الزبير بن علي السليطي فشخص إليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فالحقهم بأصبهان لجمعوا له وأعدوا واستعدوا : ثم أتوا سابور فسار إليهم ونزل قريبا منهم فقال له مالك بن حسان إن للمهلب كان يذكي العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على بعد المسافة منهم فقال له عمر اسكت خلع الله قلبك أتراك تموت قبل أجلك فأقام هناك وفي ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال لمالك كيف رأيت قال قد سلم الله ولم يكونوا يطعمون من المهلب بمثلها فقال أما إنكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب أرجو أن أنفي هذا العدو ولكنكم تقولون قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغيرنا هتقاتلون معي تعذيراً ثم زحف إلى الخوارج فقاتلهم قتالا شديداً حتى انهزموا وقتل في الموقعة ابنه عبيد الله فكتب إلى مصعب . أما بعد فإني قد لقيت الأزارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر ففرقوا شذر مذر وبلغتني عنهم عودة فيممنهم وبالله أستعين وعليه أتوكل : ثم سار إليهم وكانوا قد عادوا إلى فارس فأرسل إليهم حتى أخرجهم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم إلى الأهواز وقد ارتحل عمر إلى اصطخر : وما زالوا يروحون ويفسدون ويعيشون في الأرض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب إلى حربهم وكانوا قد ولوا أمرهم قطري بن الفجاءة المازني فخرج إليهم المهلب ولما أحس به قطري

يعم نحو كرمان فأقام المهلب بالاهواز ولما استعد الخوارج كروا عليه لخاربه
المهلب ونظام إلى رامهرمز وفي تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبد
الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماذا تقولون
في مصعب قالوا إمام هدى قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا ضال مضل . ولما
كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ما تقولون
في مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج
يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله
ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه
أن لا يفعل وقيل له إنما أمن أهل هذا المجر بأن المهلب بالاهواز وعمر بن هبيل
الله بفارس فإذا نحييت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى إلا عزله وولى حرب الخوارج
أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتى قابلهم بداربجرد فمزموه هزيمة منكرة
ولما بلغ ذلك خالد كتب إلى عبد الملك به فكتب إليه عبد الملك أما بعد فقد قدم
رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل
من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني أنه عامل لك على الاهواز فقبض
الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب إلى جنبك
يجبى الخراج وهو الميمون النقيية الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسى لها ابنها
وابن أبنائها أنظر أن ينهض بالناس حتى تستقباهم بالاهواز ومن وراء الاهواز
وقد بعثت إلى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل
فيهم برأى حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه أن شاء الله . فشق عليه أن فيل رأيه في
بعثه أخيه وترك المهلب وفي أنه لم يرض رايه خالصاً حتى قال أحضره المهلب واستشره
فيه وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختر لهم خمسة
آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء
الاهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا ما حالهم فأنصرفوا منهزمين كأنهم على
حامية وأتبعهم خالد داود بن قحزم في جيش من أهل البصرة ومدم بشر بأربعة
آلاف من أهل الكوفة فأتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجمد والجوع
ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الاهواز

وفي ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجي فغلب على البحرين وقتل نجدة
ابن عامر الحنفي فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى الاهواز وأمر أبى فديك
فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبى فديك فانهزم
ولما رأى عبد الملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشراً مكانه وكتب إليه أما بعد
فابعث المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة وليتخب من أهل مصره وجوهمهم وفرسانهم
وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم وخله ورأيه في الحرب فإني أوثق شيء
بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعضاً كثيفاً وابعث عليهم رجلاً
معروفاً شريفاً حسيباً صليبا يعرف بالبأس والتجدة والتجربة للحرب ثم انفض اليهم
أهل المصرين فليتبعمهم أى وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك
قدما بشر المهلب فأقرأه كتاب عبد الملك وأمره أن يتخب من يشاء وشق على بشر
أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره
عليه حتى كأنه كان إليه ذنب ثم دعا عبد الرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال
له إنك قد عرفت منزلتك منى وأثرتك عندى وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش الذى
عرفت من جزئك وغنائك وشرfk وبأسك فكن عد حسن ظنى بك أنظر إلى هذا
الكذا والكذا يقع فى المهلب فاستبد عليه بالأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأيا
وتنقصه وقصر به - فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الإسلام
وأقبل يغريه بآبن عمه كأنه من السفهاء أو بمن يستصحب ويستجمل . وهكذا فى كل
زمان وفى كل أمة من يدرس المصالح العامة لإرضاء لشهواته النفسية وأهوائه الفاسدة
ولا تهمة الأمة سعدت أو شقيت . رجل يكره رجلاً فبال مصالح الناس وعامة
المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا لبلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه . خرج
الجيشان حتى وصلا رامهرمز وبها الخوارج فترامى العسكران ولم يلبث الناس إلا
عشراً حتى بلغهم نعى بشر بن مروان وتوفى بالبصرة فرفض ناس كثير من أهل
البصرة والكوفة لجأهم كتاب من خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن
خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم
يجد ذلك فيهم نفعا حتى جاءهم الأسد المصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفاً
ووجههم إلى المهلب مقهورين كما علمت ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما

تتابع مسير الجنود إلى المهلب وابن مخنف ناهضا الأزارقة حتى أجلوم عن رامهرمز فساروا إلى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان : كان المهلب يخذق دائما على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك بن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان في أيدي الخوارج وفارس في يدي المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم به لا يأتهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت وهي مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث إليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتابا يقول فيه : أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصططبت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك : وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانفض اليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدكم أشد الجهاد وإياك والعلل والأباطيل والأمور التي ليست لك عندى بساتفة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنه كل ابن في كتيبة وأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يرام فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتلون أشد قتال الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار . ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيتك فرسانا قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرسانا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أباش أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس وبنه في كتائبهم فقاتلهم كقتالهم أول مرة فانصرف البراء إلى الحجاج فأخبره الخبر على جليلة ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء .

حدث في معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم في حساب ذلك أن رجلا من فرسانهم يقال له المقطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري أن يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أرى أن أفعل رجل تأول فأخطأ في التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فغلغوا قطريا وولوا عبد ربه الكبير وبقى على بيعة قطري منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضا وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم في وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى

المهلب فتركه الحجاج ورأيه : استمر الخوارج يقتلون نحرأ من شهر ثم إن قطريا خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبابع عاقمتهم عبد ربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم إلا قليل وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين : ولكتب الاشعري قصيدة طويلة يذكر يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها يا حنص إني عدائي عنكم السفر ه وقد سهرت فأودى نومي السهر

وهي من غرر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدي الحجاج فقال له أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرني عن بني المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم وكفي يزيد فارساً شجاعاً وجوادهم وسخيمهم قبيصة ولا يستحي الشجاع أن يفتر من مدرك وعبد الملك سم نافع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفالك بالمفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فإذا ألبوا ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة المفترغة لا يدري أين طرفها قال فكيف كنتم أتم وعدوكم قال كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج إن العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري قال كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منه إلى الذي تحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا أثر من القل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشافهم الآمن وشماهم النفل قال أكنت أهددت لي هذا الجواب قال لا يعلم الغيب إلا الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ماسواه الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكننا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فاتهرزت منهم الفرصة في وقت إمكانها وأدريت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) : فكتب إليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فإذا ورد

عليك كتابي فاقسم في الناس فيهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقيت من القوم بقية تخلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهما من ولدك ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم على ومجل القدوم إن شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بني إنك اليوم لست كما كنت إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك إلا على ما احتمل عليه أبوك : فأحسن إلى من معك وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إلى وتفضل على قومك ووفد المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر لإكرامه وبره وقال يا أهل العراق إنكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الأيادي

وقلدوا أمركم الله دزكم • رجب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه • هم يكاد حشاه يقصم الضلعا
لا مترقا إن رخاء العيش ساعده • ولا إذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره • يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته • مستحكم الرأي لا قحما ولا ضرا^(١)

فقام إليه رجل فقال أصلح الله الأمير والله لكأنى أسمع الساعة قطريا وهو يقول المهلب كما قال لقيط الأيادي ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتى امتلأ سرورا فقال المهلب إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمع الله الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للبتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيرا مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ما ذخركم الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيه وقال إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لتقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لاخرتهم : قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم مني وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر ممن بن المغيرة بن أبي صفرة وأشباهه : فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنا فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الأمير إنني كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس قلبا صرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي

فرسانا فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قدر بلائهم وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك : قال المغيرة بن حبياء من أصحاب المهلب :

إني امرؤا كفى ربي وأكرمني عن الأمور التي في رعيها وخم
وإنما أنا إنسان أعيش كما عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ما عتني عن قنول الجند إذ قفلوا عني بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولا ما تبهمني إذن الأمير ولا الكتاب إذ رقوا
إن المهلب إن أشتق لرؤيته أو أمتدحه فإن الناس قد علموا
إن الأريب الذي ترجى نوافله والمستعان الذي تجلى به الظلم
القائل الفاعل الميمون طائرته أبو سعيد إذا ما عدت النعم
أزمان أزمان إذ عضر الحديد بهم وإذا تمنى رجال أنهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتدهدى حتى خر إلى أسفله فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم في قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلهم حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧ . وبذلك انتهى أمر الأزارقة بعد أن ذاق الناس منهم مر الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة

ومن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التيمي ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلاً ناسكاً مخبئاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بداراً من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم ما أدرى ما تنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاية على الناس إلا علوا وهتوا وتباعدا عن الحق وجراًة . هل الرب فاستعدوا وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذي تريدون فيأتونكم فتلتق وتنتظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت إن خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب إلى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ٧٦ وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم فإنكم إنما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه وعصى في الأرض

فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالا
ثم تعملوا بها فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون . ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث
عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان
مخرجهم فبعث اليهم جندا عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث
جندا آخر عدته ثلاثة آلاف فأشجروا الخوارج حتى تركوا مكانهم وساروا فقطعوا ومضوا
حتى قطعوا الدسكرة فأرسل اليهم الحجاج جندا عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى
قتل أميرهم صالح بن مسرح فجتمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن
وما زالوا يقتلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل اليهم تلو الجند فيزيمون جنود
الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عدا وأخيرا جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب
سلطان الحجاج وعاثوا فيها فسادا وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة
فدعا الناس إلى إخراجهم فاجتمع إليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة
وخرج فسارت الجنود وراعه لكنها لم تتل منه منالا وهو في كل مرة يهزمها حتى
استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب
إليه أن يرسل إليه جندا من أهل الشام فوجه إليه أربعة آلاف ووجه الحجاج اليهم
نحو من خمسين ألفا من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفا من الغريب أن الألف
هزمت الخنسين : وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجدا فخرج
اليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع
والطاعة والصبر واليقين ولا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقم غضوا الأبصار
واجثوا على الركب واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة فجثوا على الركب وأسرعوا
الرماح وكأنهم حرة سوداء وأقبل اليهم شبيب في تعبئة فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف
الأسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدما وما زال القتال بينهم عامة اليوم
وقتل في هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة
هزم فيها وترك امرأته غزاة فقتلت ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام حتى قابلوه
بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جدا وانتهى أمر الخوارج بفرق شبيب
في النهر وتفصيل الوقائع التي جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج بطول أمرها
والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب في سنة واحدة

المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة — الفتوح في الشرق — الفتوح في الشمال — الحج
السكة — ولاية العهد — وفاة عبد الملك وبيته وصفته
الوليد الأول — الإصلاح الداخلي

بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التي حدثت إبان هذه الاضطرابات هدم الكعبة وبنائها في سنة ٦٥ هـ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالارض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه وجعل الحجر الأسود عنده في تابوت في سرقة من حرير وجعل ما كان من حلي البيت وما وجد فيه من ثياب أو طيب عند الحجة في خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها وكان السبب في إدخال الحجر ضمن البيت ما روت أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذي فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش قال بناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

الأحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم لأن الأمة إذا كان بأسها بينها شديداً لحسبها أن تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الأمة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يديها من الفتح ولم تظهر أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعف إلا في بعض الأحيان

الفتوح في الشرق

بعد أن انتهى المهلب من أمر الخوارج ولأه الحجاج خراسان في سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل فوجه

معه ابنه يزيد فزل في عسكره وكان الملك يومئذ اسمه السبل في عسكره على ناحية فييت السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب غدروا به وأنهم خافوه على الغدر حين اهتزل عسكرهم فأسره الملك وقتله في قامته فأقن يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملوا إليه ورجع إلى المهلب ووجه المهلب ابنه حبيباً إلى ربنجن فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب

ومكث المهلب بكس سنتين قليل له لو تقدمت إلى السفد وما وراء ذلك قال ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فخرج جزءاً شديداً وولى مكانه ابنه يزيد : ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو وتوفي بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بيهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها بجمعة قالوا لا قال أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم تقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثرى المال وتكسر العدد وأنها كم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلّة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمرهم ولا تختلفوا وتباروا مجتمع أموركم إن بني الآم يختلفون فكيف بنى العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فاني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته وبزل لسانه فيملك أعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفي بغدوا الرجل ورواحه إليكم لذكرك له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فإن الرجل من العرب تعدد العدة فيموت دونك فكيف الصنعة عنده عليكم في الحرب بالآناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء أنزل القضاء فإن أخذ رجل بالحزم فظاهر على عدوه قيل أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل حافط ولا ضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمه لقد مناه ومات المهلب وأوصى إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب إياه خافره وتوفي في ذي الحجة سنة ٨٣ فقال نهار بن توسعه التميمي

الأذهب الغزو المقرب للغي ومات الندى والجود بعد المهلب

أقنا بمرور الروذ رهن ضريحه وقد غيا عن كل شرق ومغرب
إذا قيل أى الناس أولى بنعمة على الناس قلناه ولم تهيب
أباح لنا سهل البلاد وحزنها بخيل كارسال القطا المتسرب
يعرضها للطمع حتى كأنما يجللها بالأرجوان المخضب
تطيف به قحطان قد عصبت به وأحلافها من حى بكر وتغلب
وحيا معد عوذ بلوائه يفدونه بالنفس والام والاب

وفى ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيرك بإذغيس واحتلها وكان ملكها قد خرج عنها فلما جاء صالحه على أن يدفع إليه مافى القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحيى بن يعمر المدوانى ونص كتابه: «إنا لقينا العدو فنحن الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسروا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار» فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عن يكتب ليزيد فقبل له يحيى بن يعمر فكتب إلى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالاهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبى وكان فصيحاً قال من هناك قال فأخبرنى هل يلحن عنبسة بن سعيد قال نعم كثيراً قال فقلان قال نعم قال أخبرنى هنى أألحن قال نعم تلحن لحنا خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتعمل أن فى موضع إن وإن فى موضع أن قال أجلتك ثلاثاً فإن أجذك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان وفى سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل . وفى عهد المفضل هزيت بإذغيس وفتحت ثم نم آخرون وشومان فظفر . ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان يعطى الناس كلما جاءه شيء وإن غنم شيئاً قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى وسيكون له ذكر جميل فى خلافة الوليد

الفتوح فى الشمال

لم يكن من الممكن فى عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفى سنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا هلى من بالشام من المسلمين وذلك فى الوقت الذى يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدى عبد الملك إليه كل جمعة ألف دينار خوفاً على المسلمين ولما

انقضت هذه السحابة واستقر الامر لعبد الملك عادت الغزوات الى بلاد الروم فنظمت الشواق والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفي سنة ٨١ فتحت قالقلا وكان أمير جندهما هيب الله بن عبد الله وفي سنة ٨٤ غزا عبد الله بن عبد الملك ففتح المصيصة

الحج

كان الذي يقيم الحج عبد الله بن الزبير في عهد خلافته وفي سنة ٦٨ وافت عرفت أربعة ألوية بن الحنفية في أصحابه في لواء وابن الزبير في لواء ونجدة الحروري في لواء ولواء بني أمية . قال محمد بن جبير خفت الفتنة فشيت إليهم جميعا فجت محمد بن علي في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فانا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله إلى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحدوين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلي ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم مني وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن انت ابن الزبير فكلمه وعليك النجدة قال فجت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعوني وهؤلاء أهل خلاف فقلت أرى لك خيراً الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحروري فأجده في أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال أما إن أبتدئ أحداً بقتال فلا ولكن من بدا بقتال قاتلته قلت فإني رأيت الرجلين لا يريدان قتالك . ثم جئت شيعة بني أمية فكلمته بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحداً إلا أن قاتلنا . ثم كان أول لواء انقض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس . وهذه حادثة غريبة في تاريخ الحج . وبعد قتله كان يقيمه عمال بني أمية

السكة الإسلامية

لم يكن للسلدين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الإسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيرطا والدينار عشرين قيرطا فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضربها

بالعراق وقد نقش عليها أولاً باسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الأمصار الإسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولي عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان ففي سنة ٨٥ أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولي مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة ابن ذؤيب فتهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعت ما انتطح فيه عزان فينا هو على ذلك إذ جاء الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه وعهد إلى ابنه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب بيعته لهما إلى البلدان يبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام بن اسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك إلى هشام يلومه على ما فعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وإنا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف

وفاة عبد الملك

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ أكتوبر سنة ٧٠٥) توفي عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويح بالشام إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً من مستهل رمضان سنة ٦٥ إلى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته مذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لأنه ولد سنة ٢٦

بيت عبد الملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسي فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام بن اسماعيل المخزومي

- فولدت له هشاما (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمي فولدت له أبا بكر واسمه
بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن صفان فولدت له الحكم
(٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة
(٧) شقراء بنت سلة بن حليس الطائي
(٨) ابنة لعل بن أبي طالب
(٩) أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر
وله من الأولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج:
لامهات الأولاد

صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوى العزيمة ثابت النفس لا تزعه الشدائد ولى أمر الامة وهي
في غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين
لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهي على غاية من الهدو والطمأنينة ولكن الضحايا
التي ذهبت في سبيل ذلك كثيرة جداً لأن الامة حية نشيطة لا تدين إلا للقوة القاهرة
التي هي فوق طاقتها والامواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يتر منه
إلا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أعلم مكان أحد
أقوى على هذا الأمر مني وإن ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن
ليخله لا يصالح أن يكون سائساً : ومما عتد من مساوي عبد الملك أنه قال مرة وهو
على المنبر من قال لي بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه وقد اعتذر عن ذلك بأن
كثيراً من الناس كانوا يقفون في هذه المواقف قصد الشهرة حتى إذا أصابهم
من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على
أية حال عذراً . ومما عتد من مساويه وهو قبيح غدره بعمر بن سعيد وقتله إياه بعد
أن أتمه وقالوا إن هذا أول غدر حصل في الإسلام ومن سن سنة سيئة فعليه لعنة
ولائم من عمل بها إلى يوم القيامة

والتاريخ يدلنا على أن كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلبوا من الهنات
في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبرة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحاً
طاماً بالأخبار فقيهاً وقد قدمنا شيئاً من ذلك في أول خلافة

٦ - الوليد الأول

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي ولد سنة ٥٠ هـ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد إلا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه لما رجع من دقته بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إنه لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملته عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولي هذه الأمة بالذي يحق عليه الله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفزطاً . أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد . أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه هيناه ومن سكت مات بدائه : ثم قام إليه الناس فبايعوه

الحال في عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الأموية ففيها قام بإصلاح داخلي عظيم واشتهر في الأمة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا إلى المملكة الإسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الأمم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الأمور ومهد لها فاستلها الوليد والأمة هادئة مطمئنة بجمعة الكلمة وخبت نار الأهواء فإن الخوارج ذهبت حذتهم وشوكتهم وقلت جوعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحركوا ساكناً ولم يوقظوا فتنة

الإصلاح الداخلي

كان الوليد ميالاً إلى العبارة فاهتم في زمنه بإصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب إلى عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب إلى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقي منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها : وإصلاح الطرق

من أهم ما يذكر لولاية الأمر في إصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء دينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق : ففي السنة المتقدمة أمر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكون متى ذراع في مثلها ومن أبي فليقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليهم ثمنها فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان ، وأرسل إليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث إليه بمئة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمئة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملاً فابتدئ بعمارتها وأدخلت فيه جميع الحجر التي لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة وكان من رأى بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثك جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة مخمساً . أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فإن الوليد احتفل له احتفالاً عظيماً حتى خرج مناسباً لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شيء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس في حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسألتهم عنها إذا تقابلوا : وبني الوليد المصانع في الشام لتسهيل الاستقاء .

ومن الإصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً إلى رعيته : ومما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة ، فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بنائه فأخرج الناس منه فلما ترك فيه أحد وثقى سعيد بن المسيب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرج به وما عليه إلا رباطان مائساويان خمسة دراهم فقيل له لو قت فإني أن يقوم قبل الوقت الذي كان يقوم فيه فلو سلمت على أمير المؤمنين فإني أن يقوم إليه قال عمر بن عبد العزيز لحملت أعدل بالوليد بناحية المسجد يرجاء أن يرى سعيداً حتى يقوم لحانت من الوليد نظرة إلى القبلة فقال من ذلك

الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم يا أمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد : قد علت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار في المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال كيف أنت أيها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فأنصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل يا أمير المؤمنين . وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الاسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوى السلطان قليلاً . أما العلماء فإنهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل ما يصيبهم في الحصول عليهما سهلاً وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكاتبتهم وأما ذوو السلطان فإنهم أحياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدى لهم نصيحة أو يعرّفهم واجباً فيحاربونهم لقصد إذلالهم وخط درجتهم ولكن الذى يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فإنه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانت به في عمله بعمر بن عبد العزيز الذى أعاد سيرة سلف هذه الأئمة الصالح فقد ولأه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة هروة بن الزبير وهبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبابكر بن عبد الرحمن وأبابكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم إذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه أجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى فخرجوا يحزون له خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وأن ذلك وهن واستشاره فيمن يوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المزنى فولأه المدينة

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح في عهد الوليد — ولاية العهد — وفاة الحجاج
وفاة الوليد — سليمان

الفتوح في عهد الوليد

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجل الأثر في الفتح الإسلامي وهم :

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي

(٣) موسى بن نصير

(٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فإنه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل ^(١) فنزل عليه وكان به بد عظيم والبد منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكان كل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة : ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو إليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلام فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف . ثم أتى البيرون فأقام أهل العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنين منهم إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصالح ثم جعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهر دون مهران ^(٢) فأناه سمين سريديس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار إلى سبهان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته :

(١) مدينة على ساحل نهر الهند

(٢) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة

عم إن محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقد فالتقى بذاهر في جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله القيلة فاقتلوا قتالا شديداً لم يسمع وترجل داهر وقاتل قاتل هند المساء وانهمز المشركون فقال في ذلك قاتل داهر :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أنى فرجت الجمع غير مفرد حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلاً متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتحوا راور عنوة ثم أتى برهمنا باذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا تخلف بها عاملاً ثم سار فتلقاء أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودولتهم ثم تقدم إلى بسند فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى : ثم انتهى إلى الرور ^(١) وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدنهم وقال ما لبد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران الجوس ووضع عليهم الخراج وبني بالرور مسجداً ، ثم سار حتى قطع نهرياس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدي إليه الآه والوتنذر له النذور ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رموسهم ولحامهم عنده فحاز محمد ذلك كله : وفي ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان إلى الرور وبغورور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى اليلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسأله أهل سرست ثم أتى الكرج فخرج إليه داهر فقاتله فانهزم العدو وهرب داهر . بعد هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل الإسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكلم بعد على خاتمة حياته . وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج ابن يوسف ولأه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم : إن الله قد أحاكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرامات ويزيد بكم المال

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان في الكبر وعليها سوران وهي على شاطئ نهر مهران على البحر وهي متجرف وفرضة بهذه البلاد وبينها وبين الملتان أربع مراحل وبالقرب من الرور مدينة بغورور

استفاضة والعدو وقا ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النهر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يعطون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حتى مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياكم والهويناً

ثم عرض الجند في السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأباه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ودعا إلى بلاده فمضى مع ملك الصغانيان فسلم إليه بلاده وكان ملك آخرون وشرمان قد أساءه جواره وضيّق عليه فسار قتيبة إلى آخرون وشرمان ومما من طخاستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أذاها فقبلها قتيبة ورضى ثم عاد إلى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب إليه إذا غزوت فكن في مقدم الناس وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقهم

وفي سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك أنه كان في يد نيزك أسرى من المسلمين فكتب إليه قتيبة يأمره بإطلاقهم ويهدده بخافه نيزك فأطلق الأسرى فوجه إليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لن لم يفعل ليغزونه وليطلبه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظمر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل بادغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بهم استنصروا الصفد واستمدوا من حولهم فأنوم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين هدره وفي ذات يوم اتى المسلمون عدوهم بجده حتى أنزل الله عليهم نصره

فانهزم العدو منهم يريدون دخول المدينة لخال المسلمون بينهم وبينها فتفرقوا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوه الصالح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه أن أهل يكند غدروا بالعمل فقتلوه وأصحابه فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلاتها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو . ولما كان الربيع سار عن مرو في عدة حسنة من السواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومة مشكت وهي من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى رامثينة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف إليه الترك معهم الصغد وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك ونفض جمعهم ثم رجع إلى مرو فقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى إلى بخارى فنزل خرقة السفلى فلقبته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعذله ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صورها لي فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغتك فنب إلى الله بما كان منك وإنها من مكان كذا فخرج قتيبة من مرو سنة ٩٠ فانتصر ملك بخارى بالصغد والترك من حولهم ولما كثر قتيبة سبقهم إلى بخارى فحصرها وفي أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فخطمهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فسكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلهم حتى ردوهم إلى مواقعهم فوقف الترك على نشر فقال قتيبة من يزيلهم لنا من هذا الموضع فلم يجبه أحد فشى إلى بنى تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبي لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بنى تميم أتسلمونني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هزيم بن أبي طحمة المجاشعي على خيل بنى تميم فقال وكيع قدم يا هزيم ودفع إليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هزيم ودب وكيع في الرجال فأنهى هزيم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم يا هزيم فطرد إليه هزيم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فارانك كشفت كان هلاكها والله إنك لاحق فقال وكيع مغضبا أتخالفني وحذفه بعمود كان معه فضرب هزيم فرسه فأقحمه وقال ما بعد أشد منه وعبر هزيم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فغطى النهر

وقال لأصحابه من وطن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لا فليثبت مكانه فمعه ٨٠٠ راجل فذب فيهم حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل بجنبته وقال لهزيم إنى مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا لحملوا فاثبتوا حتى غالطوهم وحمل هزيم خيله عليهم فطاعنهم بالرماح فساكفوا عنهم حتى حذروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه . ولما تم الفتح كتب به قتيبة إلى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصفد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا وكانت مدينة الفيل أحصنهم ثم غزا سمرقند وهي مدينة الصفد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجدا وصلى فيه وكان معه في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسة فقال يا نهار أين قولك ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب أقام بمرور الروذ رهن ضريحه وقد غيبا عن كل شرق ومغرب أفغزو هذا يانهار قال لا هذا أحسن وأنا الذى أقول :

وما كان مذكنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لأهل الترك قتلا بسيفه وأكثر فينا مقسما بعد مقسم
ثم ارتحل قتيبة راجعا إلى مرو واستخلف على سمرقند عبدالله بن مسلم وخلف عنده جندا كثيرا وآلة من آلات الحرب كثيرة . ثم انصرف إلى مرو فأقام بها

وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش^(١) وفرغانة^(٢) حتى بلغ خجندة وكاشان مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديدا فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفي سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر^(٣) وهي أدنى مدائن الصين سار إليها من مرو فر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعه ذلك عن الغزو وسار إلى كاشغر فافتتحها وكان

(١) إقليم متاخم لبلاد الترك وإقليمها أكبر إقليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنسكث وله مدن كثيرة خربت

(٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيتل بينها وبين سمرقند ٥٠ فرسخ ومن ولايتها خجندة

(٣) مدينة يسافر إليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك

بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل اليه قتيبة وفدا عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت اليكم من يهلككم ويهاكك فقال له هبيرة كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادر اعليها وغزاك وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذى يرضى صاحبك قال إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فإننا نخرجه من يمينه نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاهم ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلة ووردهم ووطئ التراب ثم عاد إلى مرو

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها إلى المملكة الإسلامية فانتشر فيها الإسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم : كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له فى سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم إلى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعده على خاتمة حياته وأما موسى بن نصير فإنه ذلك القائد العظيم الذى فتح بلاد الأندلس وأدخل الإسلام فى قارة أوروبا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الأندلس بفصل خاص فنعقد له فيما نستقبل من محاضراتنا إن شاء الله فإننا نؤجل الكلام عن فتحه الآن

وأما مسلمة بن عبد الملك فإن عزمته ظهرت فى حروب الروم فكان فى كل سنة يسير إليهم الجنود فيفتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوائد بن عبد الملك ومن الحصون التى افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية وإذا ورلى وهرقلة وقونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم

ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولى هذه ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه فى حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فأراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن

الوليد ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه ويعة عبد العزيز فكتب إليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير إليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك . ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه

وفاة الحجاج

في شوال سنة ٩٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنة ٤٥ سنة واستخاف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم من العظماء أوسيد من السادات فإن فعل أحد شيئا من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت في سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها وإذا كانت تلك النفس قوة فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد وإذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالأنباء الكاذبة حتى تكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الأول فعسف بأهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع : أسرف في القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد : قال له عبد الملك يوما كل امرئ يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبأ عنى شيئا . قال أنا لجوج حقوق حسود : ومتى كانت هذه الصفات في ذي سلطان أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خالياً من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شراً عظيماً : وكان فصيحاً لا يكاد يعادله أحد في الفصاحة من أهل زمانه وكانوا يقرنون به الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه المacedودين : وعلى الجملة فإن الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحى في سبيل ذلك أرواحاً كثيرة وكان الخراج العراقي في زمن الفتن والعسف قد قل جداً : وأنا كما علمتم

لست ممن يعجبه الإصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدما إصلاحا حقيقيا وإنما هي طريقة إذلال وإخضاع لا يدرم أثرها كثيراً لأن النفوس تنطوى على ما فيها من البغض والكراهة حتى إذا حانت لها الفرصة وثبت وفاة الوليد بن عبد الملك :

في منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ توفي بدير مران الوليد بن عبد الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث في الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ إلى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦) وكانت سنة إذ توفي ستاً وأربعين سنة وكان له من الأولاد تسعة عشر ابناً

٧ — سليمان

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ هـ من الهجرة ببيع بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت لأول عهده أحداث خير وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل إلى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الألد : فلما ولي سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولي يزيد بن أبي كبشة السككي السند فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد متمثلاً

أضاعوني وأى قتي أضاعوا ليوم كربة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على محمد فلما وصل إلى العراق حبس بواسط فقال :

فائن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً

ولرب قينة فارس قد رعته ولرب قرن قد تركت قتيلاً

ثم هذبه صالح بن عبد الرحمن في رجال من آل أبي عقييل حتى قتلهم وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لاهواء الخليفة حتى تقر نفسه بالانتقام وتناسى ما فعله ذلك القائد من عظيم الأعمال ولا ندرى كيف تدبغ القواد وتخاص قلوبهم إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثاني قتيبة بن مسلم فإنه كان ممن وافق الوليد على غرضه في عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغت عليها سليمان وهو يعد من صنائع الحجاج

فلما ولي سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب فكتب إليه كتاباً يهتبه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان وكتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيته في صدورهم وعظم صوته فيهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي وقال له ادفع إليه الكتاب الأول فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماء إليه فادفع إليه الثاني فإن قرأه ورماء إليه فادفع إليه الثالث فإن قرأ الكتاب الأول ولم يرمه إليه فاحتبس الكتابين الآخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ورماء إلى يزيد فدفع إليه الثاني فقرأه ورماء إلى يزيد فأعطاه الثالث فقرأه فتممر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول إلى دار الضيافة ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان نخرج حتى إذا كان بحلولان بلغه ما كان من أمر قتيبة فان قتيبة غير مطمئن إلى سليمان فأجمع رأيهم على خلعه فدعا الناس الذين معه إلى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعاً سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو وإخوته وأكثر بنيه . قال رجل من عجم خراسان يا معشر العرب قتلت قتيبة والله لو كان منا فسات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب إليه أن احتلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التي تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأنى قال عبدالرحمن ابن جمانة الباهلي يرثيه :

كان أبا حفص قتيبة لم يسر	بجيش إلى جيش ولم يعمل منبراً
ولم تخفق الرايات والقوم حوله	وقوف ولم يشهد له الداس عسكراً
دعته المنايا فاستجاب لربه	وراح إلى الجنات عفا مطهراً
فما رزئ الاسلام بعد محمد	بمثل أبي حفص فيسكيه عهراً

وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع وإنما تجنى عليه وكيع وعلى كل حال فإن الذي

حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبد الملك

وأما القائد الثالث وهو موسى ابن نصير فإن خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فإنه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه إلى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان منحرفا عنه فعزله عن جميع الأعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيماً لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب في معونته وعلى الجلة فإن فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم

أما العامة فإنهم استبشروا به لأنه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم في عهد أخيه وأطلق الأسارى وخلي أهل السجون وأحسن إلى الناس

الفتوح في عهده :

في عهد إمارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم أتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جندا وسار إلى طبرستان فقاتله بها الاصبهني قتالا شديداً ثم صالحه أخيراً وبينما هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بهامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحاً عظيماً لأنها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فإن الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك ساجورذا الاكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله له وزيادة في نعمه عليه وقد صار عني من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفى والغنيمة ستة آلاف ألفاً وأما حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله)

في بلاد الروم :

في عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحاصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر

ولاية العهد :

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولي عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزبد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيقطع فيكم عدوكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان :

يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنة إذ توفي ٤٥ سنة

المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر — يزيد الثاني

٨ — عمر

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أُمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه لما مات سليمان خرج رجاء بعهد الذي لم يكن فتح وجمع بني أمية في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعي عمر فأجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيول والبغال ولكل دابة سائس فقال ما هذا قالوا مركب الخلافة قال دابتي أوفق لي وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائراً فقيل له منزل الخلافة فقال فيه هيال أبي أيوب وفي فسطاطي

كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه بعد

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم في الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها . كذلك كان عمر بن عبد العزيز

في أول خلافته أرسل كتاباً عاماً إلى جميع العمال بالامصار هذه نسخته (أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدى إن كان وإن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس علىّ بهين ولو كانت رغبتى في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً . ومسئلة غليظة إلا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) وهذا الكتاب ينبيء عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشموهه بعظيم ما أتى عليه من أمر المسلمين

بما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي السرح إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقدمنا وقد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناها فإن بنا إلى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له إن أهل سمرقند قد شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظمراً : عنوة فقال أهل الصفد بل نرضى بما كان ولا نجد حرباً لأن ذوى رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم وأقما معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لاندري لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا : وهذا عمل لم نعلم أن أحداً يوصل في العدل إليه

ومما يبين رفقته بالامة وميله الى جمع كلمتها أن خارجه خرجت عليه بالعراق فكتب الى عامله يأمره أن لا يحركهم إلا أن يسفكوا دما أو يفسدوا في الأرض فإن فعلوا خل بينهم وبين ذلك وانظر رجلا صليبا حازما فوجهه اليهم ووجهه معه جنداً وأوصه بما أمرتك لجهزهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبدالله البجلي وكتب عمر الى رئيس الخارجه واسمه بسطام من بني يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجه فجاءه كتاب عمر ومحمد بن جرير وكان كتاب عمر ، بلغني أنك خرجت غضبا لله ولنييه ولست بأولى بذلك مني فهم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا ، فكتب بسطام الى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك . ولما وصل هذان الرجلان الى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي تقمتم . فقال المتكلم ما نقمنا سيرتك إنك لتعري العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتزتم أمرهم : فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد الى رجل كان قبلي فقمتم ولم ينكره على أحد ولم يكرهه غيركم وأتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فأتركوني ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم . فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على ضلالة قالعنهم وإبرأ منهم فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعلنا وقال إبراهيم (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقال الله عز وجل (أولئك الذين هدام الله فهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها فإن قائم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال أفيسمعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسمعي إلا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون . قال أمام كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى الإيمان فكان من أقربوه وبشرائمه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد فقال الخارجي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقوله

لأعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم هل علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء - قال الخارجي فأبرأ بما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا هل حق قال بلى قال أتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبي الذراري وأخذ الأموال قال بلى قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده إلى عشاثرهم بفدية قال نعم قال فهل برئ عمر من أبي بكر قال لا قال أفتبرون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دمًا ولم يأخذوا مالا وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريتته وهي حامل قال نعم - قال فهل برئ من لم يقتل بمن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسمعكم أن تتولوا أيا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعى إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من آمن عنده فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمنا وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونهم ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرايت رجلاً ولي قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أترأه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل أوترأه قد سلم قال عمر لا قال أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً . وكان هذا السؤال الأخير محرراً لعمر فطلب النظرة في الإجابة عنه

وكانت هذه المناظرة سبباً لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت واسكني لأفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم . فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما علم أنهم إنما خرجوا طلباً للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فإنه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق على أمته ومن أعماله العظيمة تركه لسبب على بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه

فتركه وكتب إلى الأمصار بتركه وكان الذي وقر ذلك في قلبه أنه لما ولي المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن هبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء عما يقوله بنو أمية فقال عبيد الله متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك في علي فقال عمر معذرة إلى الله وإليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع مكان ذلك (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فأى شر رفع وأى خير وضع وقال في ذلك كثير عزة :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغ من الأود البادى ثقاف المقوم
ومن لإصلاحه أمره بعمل الخانات فى البلدان القاصية فقد كتب إلى سليمان بن
أبي السرى أن يعمل خامات فمن مريبك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم
ومن كانت به علة فأقروه يومين وليتين وإن كان منقطعا فأبلغه بلده

ومما يذكر به أنه أبطل مزارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج بن
يوسف فقد كتب إلى أمير العراق (أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدّة
وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة سنّها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل
والإحسان فلا يكون شيء أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الإثم ولا تحمل
خراباً على عامر وخذ منه ما طاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة
الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذ أجور الضرابين ولا هدية النوروز
والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح
ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة فانبع فى ذلك أمرى فإنى قد وليتك من ذلك
ما ولا فى الله) : ومما فعله أنه نهى عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع إلا بعد أن يراجع فيه
بعد أن كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوى الأمير وما ذكر
الحجاج عنكم ببعيد ومن الحكمة أن لا يتساهل فى مثل هذه الحدود وضم رأى الخليفة
إلى رأى الفاضل الذى حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قد وقع موقعه

رده المظالم لأهلها — لما ولي الخلافة أحضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم إن فذك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم إنها قد صارت إلى ولم تكن من مالى أعود منها على وإني أشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال للمولاه مزاحم إن أهلى أقطعوني ما لم يكن لى أن آخذ ولا لهم أن يعطوني وإني قد همدت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال أنكلهم إلى الله نخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر فقال له إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه فقال عبد الملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال إن مزاحم أخبرنى بكذا وكذا فأرايك قال إني أردت أن أقوم به العشية وقال عجلة فثاؤم منك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذى جعل من ذرتى من يعينى على دينى ثم قام من ساعته فى الناس فردها وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففرع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولي عمر فعمل عملها ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلى وقد يبس النهر الأعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا ذكر شيئاً أبداً فرجعت لإيهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا

لما ولي عمر قال للناس فى خطبة « من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده : ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه ولا يفتنا بن أحداً : ولا يعترض فيما لا يعنيه فانقشع الثمراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف فى ملبسه بكمه عمر ابن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذى توفى فيه دخل عليه

عمر فقال يا بنى كيف تجدك قال أجدنى فى الحق قال يا بنى أن تكون فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك فقال يا أباه لأن يكون ماتحب أحب إلى من أن يكون ما أحب فمات فى مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لآييه يا أمير المؤمنين ما تقول لربك إذا أتيتك وقد تركت حقاً لم تحببه أو باطلا لم تمتك فقال يا بنى إن أجدادك قد دعوا الناس من الحق فانتهمت الآلهة إلى وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلا ألا تطالع الشمس على فى يوم إلا أحيت فيه حقاً وأمات باطلا حتى يأتينى الموت وأنا على ذلك

وعلى الجملة فإن عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمع بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذى بعث على رأس المئة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء فى حديث « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها »

وربما يسأل عن اكتساب عمر هذه الأخلاق وهو فى بيئة المترفين والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التى يعيش فيها الإنسان فقول إن عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه إلى المدينة وهو صغير فربى فيها بين فقهاءها وصالحائها فاكسب منهم حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها والرافة بها . قال محمد بن على الباقر إن لكل قوم نجية وإن نجية بنى أمية عمر بن عبد العزيز وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر أهله

لم يحدث فى عهد عمر شيء من الحوادث الداخلية المهمة إلا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب وإحضاره إلى عمر فسأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك فقال كنت من سائيان بالمكان الذى قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس وقد علمت أن سائيان لم يكن ليأخذنى به فقال لأجد فى أمرى إلا حبسك فأتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها وحبس بحصن حلب فجاء عمر محمد بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين إن الله منح هذه الأمة بولايتك وقد ثلينا بك فلا تكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أحمل ما عليه فصالحنى على ما تسأل فقال عمر لا إلا أن تحمل الجميع فقال يا أمير المؤمنين إن كانت

لك بينة نخذ بها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذه إلا بجميع المال فخرج بخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر ابن عبدالعزيز واستمر المهلب في سجته حتى إذا أحسّ بقرب موت عمر أعبد لله رب عذته خوفاً من يزيد بن عبد الملك لأنه كان قد حرب آل أبي عقيل وهم أصحاب يزيد لأنه كان متزوجاً ببنت أخى الحجاج وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة وكتب إلى عمر إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرقة فورد الكتاب ويعمر روقي فقال اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقه بي وهضه فقد هاضني

ومن الحوادث الخارجية في عهده أنه كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وقد كانت سيرته باغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقول عنها إلى ماطية وطرندة داخلية في البلاد الرومية من ماطية ثلاث مراحل وكان عبدالله بن عبدالله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وماطية يومئذ خراب وكان يأتهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن يزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي عمر فأمرهم بالعود إلى ماطية وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وأخرب طرندة

وفاة عمر بن عبد العزيز

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصري أربعة عشر يوماً بدل أربعة أيام لأنه ذكر وفاة سليمان في ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاته عمر ما ذكره إلا أنه ذكر في بعض الروايات أن سليمان توفي لعشر مضين من صفر بدل بقين منه وإذا كان ذلك صحيحاً أن تكون الأيام الأربعة عشر ولكن مختار باشا لم يقبض هذه الرواية في موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر

٩ - يزيد الثاني

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد إليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة

بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفي عمر بويح بها فلما تولى عمداً إلى كل صالح فعلة عمر فأعاده إلى ما كان عليه وهو أول خليفة من بني أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فإنه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدى بن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والاهواز فبعث إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً عظيماً يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك . خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثراباً من جهاد الترك والديلم فسمعه الحسن البصري سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيتك والياً ومولياً عليك فما ينبغي لك ذلك فقام إليه أناس فأسكتوه خوفاً من أن يسمعه بن المهلب : وروى الطبري أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعوننا إلى سنة العمرين فقال الحسن إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خرقة ثم قال إني قد خالفتم بخالفهم قال هؤلاء القوم نعم وقال إني أدعوكم إلى سنة العمرين وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى محبس عمر الذي فيه حبسه

ثم إن يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطاً فأقام بها أياماً ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود لما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية حتى إذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى إذا انتهوا إلى قنديل لحقهم الجند الذي أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل ابن المهلب فإنهما نجوا : وبهذا انتهت أسيرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تنباهي الأمم بهم ولما تم على يد مسلمة بن عبد الملك إخماد هذه الفتنة ولاد أخوه العراقيين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزارى فقال في ذلك الفرزدق الشاعر راح بمسلة الركاب مودعا فارعى فزارة لاهناك المرتع

عزل ابن بشروا بن عمرو قبله وأخوه امرأة لمثلها يتوقع
وقد علمت أن فزارة أمرت أن سوف تطمع في الإمارة أشجع
من خاق ربك مام ومثلهم في مثل مانالت فزارة تطمع

يعنى بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمر ومحمد بن عمر بن الوليد
وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان
وولى ابن هيرة سعيد الخرشى على خراسان وكانت له مع الصغداهل سمرقند وقائع
عظيمة من كثرة مائة ضوا كاد يستأصلهم فيها

وفى عهده دخل جيش المسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهرانى فاجتمعت
الخزر فى جمع كثير وأعانهم قنجاك وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان
يعرف بمرج الحجارة فاقتلوا هناك قتالا شديدا فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت
الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد
ابن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ما جئت
ولانكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعت
حتى انقصف رمحى وضاربت حتى انقطع س فى غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد
ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا فى بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد
الجراح بن عبد الله الحكمى حينئذ على أرمينية وأمد به جيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم
من الأعداء فسار الجراح حتى وصل برذنة وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبى نهر الكرو
ولما وصل إلى مدينة الباب والأبواب لم يجد فيها أحدا من الخزر فدخلها بغير قتال
ثم أقبل إليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفرا عظيما ثم
سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم
وتسلم حصنهم ونقلهم عنه ثم سار إلى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم
فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار ثم إن الجراح أخذ أولاد صاحب
بلنجر وأهله وأرسل إليه فحضر ورد إليه أهله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم بخبره
بما يفعل العدو ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الويسندر وبه نحو أربعين ألفا
من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة
اثرا وفتحاً فى تلك البلاد القاصه

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقليل له إنه صغير فولى أخاه هشاما
ومن بعده ابنه الوليد

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفى يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من أرض
دمشق وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهراً من ٢٥
رجب سنة ١٠١ إلى ٢٥ شعبان سنة ١٥٠

المحاضرة الأربعون

هشام — الأحوال الداخلية في عهده — صفته ووفاته — الوليد الثاني
يزيد الثالث — مروان الثاني

١٠ — هشام

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢
من الهجرة وكان أبوه عبد الملك إذذاك يحارب مصعب بن الزبير وأمه عائشة بنت
هشام بن اسماعيل المخزومية

وكان حين مات أخوه يزيد مقبلاً بمصر وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم
عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول
سنة ١٢٥ أي تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً وكان هشام معدوداً من
خير خلفاء بني أمية ولعمري إن من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير من ذلك

الأحوال الداخلية في عهده

في العراق والشرق — كان أمير العراق حين ولي هشام عمر بن حبيبة وكان لهشام
فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن حبيبة وولى بدله خالد بن عبد الله القسري وهو

قحطاني . فاختار لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجديد بن عبد الرحمن على السند

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماما مقداما غزا في أول ولايته الغور وهو جبال هراة ففتح . وفي سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند إلى بلخ وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبين البروقان فرسخان : وكان من عيوب أسد أنه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبختري بن أبي درهم وحلق رموسهم وسيرهم إلى أخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمي من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا

إذا للقيم عند شد وثاقه بني الحرب لا كشف اللقائم ولا ضجرا

وخطب أسد يوما فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق

والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني إلى مهاجري ووطني

فبلغ فعلة ذلك هشاما فكتب إلى خالد أعزل أخاك فعزله ثم ولي هشام خراسان

أشرس بن عبد الله السلي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلا خيرا وكانوا

يسمونهم الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به : ولأول عهده أرسل إلى أهل

سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس

هناك إلى الإسلام فكتب صاحب الخراج إلى أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب

أشرس إلى أمير سمرقند إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد

وأشباههم لم يسلموا رغبة إنما أسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختن وأقام

الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجهم : كان رسول أشرس إلى الصغد

بدعوة الإسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأى العمال يطالبون من أسلم بالجزية

منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة أن عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء

ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبي الصيداء وبقيّة الرؤساء الذين ساعدوه

حتى جرى بهم خبثهم واستخف بعد ذلك بعضاء العجم والذماقين فكفروا أهل الصغد

واستجاشوا الترك فأعانوهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازيا في جنوده حتى عبر النهر من عند آمل فأقبل اليه الصفد والترك وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون يهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتى هزموا عدوهم : ثم سار أشرس حتى نزل ييكنند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشا لولا أن انتدب شجعانهم إلى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم فذهب خاقان إلى مدينة كمرجة وهي من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارى فأغاق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق واستهاتوا في المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساءلهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل إلى من بالمدينة يقول لهم إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي ما بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم .

ثم اتفق معهم خاقان أخيراً على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة إلى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة إلى الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفي سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد ابن عبد الرحمن المردى فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل إلا مضرباً وفي سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر ألفاً إلى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف إلى وجه آخر فكتب إليه أمير سمرقند أن خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت إليهم فلم أطلق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر . فقال له ذوو الرأي ممن معه إن أمير خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جنديك : قال فكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن معه من المسلمين لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان

في جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسنا مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله بن حبيب اختر إما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر : قال هلاك سورة أهون علي قال فاكتب إليه فليأتك في أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه : فكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم : فرحل سورة عن سمرقند في اثني عشر ألفا فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد قتال فانهكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لحب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فانقدت نخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم إلا القليل

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير إلى سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الواقعة الأولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم باغى أن خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترساً على تعبته فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزموها : ولم يزل سائراً حتى ورد بخارى : والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالي وكان هشام قد غضب على الجنيد لأنه تزوج الفاصلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم إن أدركته وبه رمق فأرهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله من هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لا بساً السواد داعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خاق كثير فأتولى على باخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقاتله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الأعظم وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب إلى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق وتكون موادها

ومعوتها في الإحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غيائه عنها
فمزل هشام عاصما عن خراسان وولاهما أسد بن عبد الله القسري وجعلها من ضمن ولاية
خالد : ولما بلغ عاصما إقبال أسد صالح الحارث بن سريج هلى أن ينزل الحارث أى
كور خراسان شاء وأن يكتبها جميعا إلى هشام يسأله العمل بكتاب الله وسنة نبيه
صلى الله عليه وسلم فإن أبى اجتماعا عليه تختم الكتاب ببعض الرؤساء وأبى آخرون
وقالوا هذا خلع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث
وعاصم انهزم فيها الحارث هو وأصحابه ولما قدم أسد حبس عاصما وحاسبه وطالب
منه مئة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله موقعة مع خاقان ملك الترك
بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم
ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله : ثم إن خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت
الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغرب بعضهم على بعض : وأرسل أسد مبشرا إلى هشام
بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكرا

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعته العظمى وفزق العسكر في أودية
الختل فقتلوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله إلى الصين : وفي سنة ١٢٠ توفي
أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالدا القسري عن العراق لو شاية أثرت
في نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملا على اليمن فسار حتى أتى الكوفة
في جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على
عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوى الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازما
للمسجد ضابطا لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعا حسن الملكة كثير التضرع
والدعاء فكان يصلى الصبح ولا يكلم أحدا حتى يصلى الضحى ومع هذا كان شديد
العقوبة مسرفا في ضرب الأبخار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمز ظفره عليه فإن
تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحق نوادر كثيرة

ولى خراسان نصر بن سيار ولأه هشام وأمره أن يكتب يوسف بن عمر

وفي ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن علي بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سراً فيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بني عمر بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصنع : وبلغت الأخبار يوسف بن عمرو وهو بالحيرة قتيلاً له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيدا وقالوا له . ما فؤلك في أبي بكر وعمر قال رحمهما الله وغفرلها ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم إنما كنا أحق بسلطان ما ذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس أجمعين فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفر أو قدولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم : فقال إن هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لي ولكم ولا أنفسهم وإنما ندهوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أحببتمونا سعدتم وإن أبيتم فليست عليكم بوكيل فقارقه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسيامهم زيد الرافضة . وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأتها أكثر من مئتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق : وإلى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ما وراء النهر كان له فيها النصر دائماً : ووضع الجزية عن أسلم من العجم ، وانتهت مدة هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان

في أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكيم وكان له غزوات إلى ما وراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزل هشام وولى بدله مسلمة بن عبد الملك فأرسل مسلمة نائباً عنه وهو الحارث بن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً وفي سنة ١١٠ سار مسلمة إلى الترك من باب اللان فآتى ملكهم في جموعه فاقتلوا قريبا من شهر وكانت الهزيمة على الترك وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية

تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالما لجمعت الخزر جمعوا واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقبهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثر الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل : وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي وأتبعه بالجنود ولما وصل أرزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل إلى خلاط فافتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء إلى أن وصل برذعة فنزلها . كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة وهران ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبائاً فسار اليهم ليلاً فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان : ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه الخزر هزيمة منكراً وعلى الجملة فإن الحرشي أذل الخزر إذلالاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه وأرسل الحرشي بأخبار انتصاره إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصوناً ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأودعوا الزيران ثم تركوا أخيارهم وأثقالهم وعادهم وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وآخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى الباب والابواب في آخر رمق

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا إليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمدّه بمائة وعشرون ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه إلى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود إليه فدخل مروان بلاد

الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك الخزر ينفذ بجموعه أمامه ذليلاً فأقام مروان في تلك البلاد أياماً ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح أقلا عارداً له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فماد عنهم وكان مروان يلج على أهل تلك البلاد بإظهار القوة حتى لم يكونوا يتحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفاً شديداً ودانت له جميع البلاد التي على شاطئ بحر الخزر في الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالي للبلاد الإسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جداً لاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواقي والصوائف دائماً الحركة وعن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الاصفاع مروان بن محمد (قبل أن يولي أرمينية) ومسلية بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان ابن هشام وقد افتتحوا في غزواتهم بلداناً كثيرة رومية منها قرنية وخرشنة وقيسارية وكثيراً من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكبر القواد عبد الله بن عقبة ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة ١١٣ وكان يغزو مع عبد الله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن اللجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمز برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى أمامك فخالط القوم فقتل : وفي سنة ١٢٢ قتل عبد الله البطال وكان كثير الغزو إلى بلاد الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلية إلى بلاد الروم وأمره على رموس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلانته وقال إنه ثقة شجاع مقدم فجله مسلية على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم

ولنما أشرنا إلى ذكر عبد الوهاب والبطال لأنهما بطالا رواية كبيرة ألفت في عصر لانعله بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهممة والعامة يلفظونها (الدهمة) وهي أم عبد الوهاب وقد كنا في صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) ونتفكك بقراءتها اليوم لانرى أحداً يقرأ منها شيئاً وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر يبرس فيظهر أنهما ألفا في عصر واحد

في الحجاز

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفي سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك : ومما يروى عنه في حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبد الله ابن الوليد بن عثمان بن عفان فسار إلى جنبه يقول يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزلوا يلعنون في هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له أن يلعنه فيها : فشق على هشام قوله وقال لا قدمنا لستم أحد ولا لعنه . قدمنا حجاجا ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد راوى هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كلمه إبراهيم بن محمد بن طلحة وهو في الحجر فقال له أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذى خرجت معظالمه ألا رددت على ظلامي قال أى ظلامة قال دارى قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمنى : قال فالوليد وسليمان قال ظلماني قال فعمر : قال رحمه الله ردها على قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمنى وقبضها منى من بعد قبضى لها وهى فى يدك فقال هشام لو كان فىك ضرب لضربتك قال فى والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال فى الناس بقايا ما رأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذى يقيم للناس حجهم إلا فى سنة ١١٦ فإن الذى أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولى العهد وفى سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل فى الحجاز حوادث ولا ثورات فى عهد هشام أما أمر مصر والمغرب فستكلم عليه إن شاء الله وحده فى تاريخ مصر هذا بحمل حال الأمة العربية فى عهد هشام الذى طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاررها من الأعداء إلا أن الذى يؤخذ عليها هو ظهور عصية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والرابعة ومن عيوب الأمم الكبرى أن تكون شعبا جنسية فإن هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويا فإذا ضعف

أثره قليلا ونقض عرق التعصب الذميمة فنماؤ كد أنه لابقاء الأمة معه وهكذا كان حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل

ولاية العهد

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك هو الوليد بن يزيد فبدالهشام أن يعزله ويولى بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفاج وإن كان قد أجابه بض القواد إلى ما أراد وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالآزرق على ماء له بالاردن

وفاة هشام

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفي هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥)

صفته

كان هشام مشهوراً بالحلم والعفة : شتم مرة رجلاً من الأشراف فقال له الرجل أما استحي أن تشتمني وأنت خايفة الله في الأرض : فاستحيا منه هشام وقال اقتص مني قال إذا أنا سفيه فذلك قال فخذ مني عوضاً من المال قال ما كنت لأفعل : قال فهبها لله : قال هي لله ثم لك : فنهك هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها أبداً قال عبيد الله بن علي بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أرد ديواناً أصح ولا أصالح للعامة والساطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض : والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف : ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصحونه بوصمة البخل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً حتى يحبه الشعراء والكتّاب ويشيدوا بذكروه . ومما يؤخذ عاينه ما فعله مع الوليد بن يزيد فإنه أساء إليه كثيراً حتى ساء خلقه . ودعا القواد إلى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجلدهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته

١١ — الوليد الثاني

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف

الثقفي كان واليا للامم بعد هشام وكان مغاضبا له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرناه

ولم يزل مقبلا في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول ما فعله أن كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحضرها فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه لإمساكه بن هشام فإنه كالم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أثر عن الوليد شعر كثير في الشتمة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الأحوال المشـ نوم وقد أرسل المطر وملكننا من بعد ذا
ك فقد أورد الشجر فأشكر الله أنه زائد كل من شكر
وقوله

ليت هشاما كان حيا فيرى محله الأوفر قد أنزعا
ليت هشاما عاش حتى يرى مكياه الأوفر قد طبعا
كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به أصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما بهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الأمة وأفراد البيت الأموي

كان ممن أجاب هشاما إلى خلع الوليد محمد وإبراهيم ابنا هشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد إلى المدينة يوسف بن محمد الثقفي والياً عليها ودفع إليه محمداً وإبراهيم موثقين في عبادتين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا إلى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقراية . قال أي قراية بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط إلا في حد : قال ففي حد أضربك وقد أنت أول من فعل بالعرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد أخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وبعثه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجي إياه) ثم أمر به الوليد بجلده هو وأخوه إبراهيم ثم أوثقهما حديدأ وأمر أن يبعث بهما إلى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبهما حتى ماتا وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه

إلى عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين
أمراته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالک
وكان خالد بن عبد القسرى سيداً من سادات اليمین فطلب إليه الوليد أن يبايع لابنيه
الحکم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً في أن
أرسله إلى يوسف بن عمر الثقفي وإلى العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في حمل
بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه عذاباً
شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاة وهم
أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم
فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك
بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وماسبب ذلك كله إلا شهوة الانتقام
التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح وإذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو
من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع : أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على
البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاء عن ذلك ولكنه لم ينته وبايعه
الناس سرّاً وبعث دعائه فدعوا إليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان
وهو بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم
الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد
إلى العباس بن الوليد فاستدعى العباس يزيد وتهده فكتبه يزيد الخبر فصدقه ولما
اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سرّاً وكان واليه عبد الملك
ابن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهاز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز
ابن الحجاج بن عبد الملك فذهب إليه وهو بالاعداف عن أرض عمان فقاتله ولما
أحس الوليد بالغبلة دخل قصره وأغلق عليه بابه وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ
فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه
وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رخ وطيف به في دمشق
وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة
أشهر : وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية

١٢ — يزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أُم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز ابن يزدجرد بن شهریار بن كسرى وفي ذلك يقول

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقصر جدى وجدى خاقان

ببيع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لأنه نقص من أعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد وردّها إلى ما كانت عليه زمن هشام : وكانت ولاية يزيد فاتحة اضطراب في البيت الأموي ومبدأ انحلاله وذهاب سعاده

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حصص ليأخذوا بثأر الوليد من قتله وأمر وعلهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان ابن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملا للوليد على حصص وهو من سادة بني مروان نبلا وكرما وعقلا وجمالا : فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل إليهم رسلا فيهم يعقوب ابن هانيء وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وإنما يدعو إلى الشورى فلم يرض بذلك أهل حصص وطرّدوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشا عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حواريين . كان أهل حصص يريدون الذهاب إلى دمشق وأشار عليهم مروان بن عبد الله أن يبدؤا بقتال هذا الجيش فانهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفيناني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق فسار سليمان مجدأ في أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جندا آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حصص فهزموهم وقتلوا منهم عددا عظيما ولما رأوا ذلك دانوا يزيد وبايعوه وكافعل أهل حصص فعل أهل فلسطين فإنهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الأردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير إليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حصص الذين كانوا مع السفيناني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفا ولم تتم لأهل فلسطين والأردن لأنهم اختلفوا فتزق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فإن يزيد ولي العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر ابن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم : قام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن علي الأزدي المكنى ويلقب بالكرماني لأنه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون إفساد الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصية له وبذلك نبض عرق العصية الجاهلية بين الحيين العظميين من العرب وهما اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الأزدي حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما لولا أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صالح على فساد لأن كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بني العباس : ولم يكن عند ولاية الأمر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سيد هذه التهمة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فإنه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه . وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : فلما توفي يزيد قام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان وإلى الجزيرة وأرمينية لم يررض ولاية إبراهيم فسار إلى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحصن ولما وصل عين الحر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل إبراهيم بن الوليد فاتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى فاستولى عليها وبأبيه أهلها وهرب إبراهيم بن الوليد فأقتنه مروان ولعدم تمام الأمر لإبراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء

١٣ - مروان الثاني

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الاشرافأخذها محمد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان واليا على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجمعدى لأنه تعلم من الجمعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وبويع الخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع إلى أن قتل وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعيا إلى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جدا وكان والي العراق عبدالله بن عمر بن عبد العزيز يحد في حربه وكانت العامة تميل إليه لمحبتهم لآبيه فساعد ذلك على أن غلب عبد الله بن معاوية ونفاه عن العراق

ثم كان بالشام ما هو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالى على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه أهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل الفوطة لخاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم : ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فإنه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم إلى ذلك وسار بإخوته ومواليه معهم فحسروا بقرقيسياً فآقل إليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قيسرين وكانت النتيجة أن انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عددا عظيما فقتلهم ويقال إنه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت ثلاثين ألفا ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار إلى تدمر فأقام بها أما مروان فأتى حمص واستولى عليها . فأتهم ترون أن القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاكا حزنا تبعا لانشقاق البيت

الممالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف يتهنز الفرص
لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لإظهار ما في
أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها
عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله إلى واسط فتبعوه ولما اشتدت
الحرب سلم عبد الله الأمر إلى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية
وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك
ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان إذ ذاك
محاصراً لحصن فلما بلغه الخبر كتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن
يسير إلى نصيبين فيمن معه لينزع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار إليها في سبعة
آلاف فسار إليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مائة ألف
ولما انتهى مروان من أمر حصن سار لمقابلة الضحاك فالتقى به في نواحي كفر تواما
فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن
بهدل الخبيري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهمز القلب وفيه
مروان ووصل الخبيري إلى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر
قلة من مع الخبيري ثار إليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان
وقد جاز المعسكر بخمسة أميال منهزماً فانصرف إلى عسكره ورد خيوله إلى مواقعها
وبات ليلته في عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخبيري ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز يشكرو فأقام
يقاتل مروان ولكنه لما رأى أن الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه إلى الموصل
فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

في أثناء ذلك سیر مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق بالجنود فأجلى الخوارج
عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جنداً لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك
كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جنداً وأمر القائد
أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فإن قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتى
لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكراً فمضى شيبان إلى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠
ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدي الشهير بأبي

حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر سنة ١٢٨ فقال له يا رجل اسمع كلاما حسنا أراك تدعو إلى حق فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان

وبينا الناس بعرفة سنة ١٢٩ إذا طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤس الرماح وهم سبعمائة ففرع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بمحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلي مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطراً ولا هبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لنار قديم نيل ما ولكنا لما رأينا مصاييح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أقبلنا من قبائل شتى نفرنا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض فإنا وأيدنا بنصره فأصبحنا والله جميعاً بنعمته إخواناً ثم لقينا رجالكم بقديد فدهوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغى ثم أقبلوا ليهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدماهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذي روثق فدارت رحانا واستدارت رحام بضرب يرتاب منه المبطلون وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان

وآل مروان يستحكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم
مؤمنين يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر يا أهل المدينة الناس منا ونحن
منهم إلا مشركاً أو عابداً وثناً أو مشرك أهل الكتاب أو إماماً جائراً يا أهل المدينة
من زعم أن الله عز وجل كلف نفساً فرق طاقها أو سألها ما لم يؤتها فهو الله عز وجل
عدو ولنا حرب يا أهل المدينة أخبروني ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه
على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد فأخذها لنفسه
مكابراً محارباً لربه يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث
وأعراب جفاة ويلكم أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلا شباباً أحداثاً شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن
الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت قد خالطوا كلالهم
بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية
شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة فلما نظروا إلى السيوف قد انتضبت والرماح قد شرعت
وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة
لوهدد الله عز وجل ولم يستخفوا لوهدد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من
عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد
زالت عن مفصاها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا
(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

ثم إن أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من
عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي
وأمره أن يجد في السير ويقا تل الخوارج فإذا ظهر بهم سار حتى يبلغ اليمن
ويقا تل عبد الله بن يحيى فسار ابن عطية حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى
فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار إلى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار إلى اليمن
وبلغ عبد الله بن يحيى مسيره إليه وهو بصنعاء فأقبل إليه بمن معه ولما التقيا قتل عبد الله
وحمل رأسه إلى الشام

كل هذه المشاغل والعتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان
وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعه بني العباس ورئيسهم المقدم أبي مسلم

الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بني العباس ثم مدوا سلطانهم إلى العراق فاستولوا عليه من عمال بني أمية (وسن فصل حديثهم وما كان منهم حينما نشغل بتاريخ الدولة العباسية)

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ ببيع بالكوفة لأبي العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر في إرسال الجند لمروان حتى يقضى عليه القضاء الأخير فاختارعه عبدالله بن علي قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل عن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر وعبدالله بن علي يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبدالله في أثره أخاه صالح بن علي فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلاً في كنيسة بقرية بوسير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وأبتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)

الخاتمة

في مدينة الاسلام في عهد الدولة الاموية وأسباب سقوطها

الخلافة الإسلامية

لبست الخلافة في عهد الدولة الاموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدم عنه باب وجد في العهد الاموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم في آءوجا فليقمه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يخنط بالناس كأحدهم في الاسواق والمجامع يأمر وينهى ويربى ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الامير عمر ابن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد الوليد بن يزيد بن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام ابن عبد الملك

طاب يومى ولدة شرب السلافة وأنانا نعى من بالرصافة
وأنانا البريد ينعى هشاما وأنانا بخانم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزئ أحدهم بأقل ما يجتزئ به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لاعليه ولاله صرنا نرى بني مروان قد انغمسوا في الترف فاخترت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الاغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد : وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته أما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن

الملك العقيم وبعد أن كانت الامة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأبها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر فكأنه يعتذر لهم عن قسوته في معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له

هم بدلوا الحكم الذي في سببتي فبدلت قومي غلطة بليان

وإذا كنا على رأى من يقول إن الامة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق) ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فإن مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة في بيت واحد

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ماعدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد ابن عبد الملك ومروان بن محمد فإن أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة : ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك . ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتى قتله وحل محله . ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتى دالت دولتهم على يده

أما من عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثاني اختاره يزيد : وعبد الملك اختاره أبوه مروان : والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان : الأول ابن عمه ، والثاني أخوه . وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد : الأول أخوه . والثاني ابنه

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اختار أحدهم واحداً لولاية عهده بل كانوا دائماً يختارون من يلي بعدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعوا

عنها فكانت سببا مهما من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتى توضيحه
وكانوا يأخذون البيعة فى حياتهم لولاء عهدهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة
مرة ثانية تأكيداً للمهد والميثاق. وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموى ثم يليهم
القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم وكانت البيعة
على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شذوا
أحيانا عن نص هذه البيعة إذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المرى البيعة
على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم
وكان الحجاج بعد هزيمة بن الأشعث لا يبايع إلا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه

إدارة البلاد

كانت البلاد إسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم
وكانت مقسمة إلى إمارات كبرى وهى

(١) الحجاز : وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الأمير بالمدينة وكان يضاف إلى
ذلك أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير

(٢) العراق : وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والأمير يقيم فى الكوفة بعض
السنة وفى البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يخاطب الخليفة
رأسا : وقد يضاف أحيانا إلى إمارة العراق بلاد اليمامة

(٣) الجزيرة وأرمينية وتنظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية

(٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهى فلسطين - والأردن - ودمشق وحمص
وقنسرين وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل
قنسرين وأنطاكية ومنبجا جندا برأسه وإنما سمي كل منها جنداً لأنه يجمع كورا والتجند
التجمع وقيل سميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطيائهم فيه والأقرب أن هذا
هو أصل التسمية

(٥) مصر وإفريقية وتنظم بلاد مصر وشمال أفريقيا وكانت إفريقية فى بعض
الأحيان تستقل بوال عن مصر

(٦) بلاد الأندلس بعد فتحها تارة كانت تضم إلى إفريقية

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود إمارته كانت الأعمال التي ترجع إلى الخلفاء وهي :

(١) إقامة الصلاة

(٢) قيادة الجيش

(٣) جباية الخراج . والصدقات ووضع ذلك مواضعه

(٤) القضاء بين الناس في منازعاتهم : وقد كان الأمير يقوم مقامه الخليفة

أحيانا في جميع ذلك ويقيم للسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جاييا للخراج فيصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى إلى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس ونارة كانوا يقصرون الولاية على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع إليه رأسا .

والأمراء الذين كانت إليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الإداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن هبيرة الله القسري إلا أن الحجاج كان أكثرهم استقلالا للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضى في حواضر الإمارات إلا أنه لا مانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره إلى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته وقد ضيق على الأمراء عمر بن عبد العزيز بعض التضيق لأن ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم أن لا ينفذوا حدا من الحدود من قتل أو قطع إلا إذا عرض عليه وأمر بتنفيذه : أما في عهد غيره فكان الأمراء يفعلون ما فرق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل على أيسر الذنوب ويضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس

والذي دعا إلى تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في

دائرة ولايته لطلال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا
مسبب للاضطراب الكثير

ومن اعظم ما يؤخذ على بنى أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم إذلال الأمراء
ومصادرتهم في أموالهم وأحياناً الإتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدأ هذا
في عهد سليمان بن عبد الملك فإنه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن
مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المتابر واستمر الأمر على ذلك من بعد عمر بن عبد العزيز
إلى أن انتهى أمرهم وقد كان هذا سبباً من أسباب فناء البيت الأموي ومن أغرب
ما حصل لهم أن يوسف بن عمر التقي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبد الله القسري
اشترى من الوليد بن يزيد خالدا وعماله بخمسين ألف ألف فدفعه إليه فتزع ثيابه وألبسه
عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وهذبه عذابا شديدا وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى
الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله في الليل ودفنه من وقته بالخيرة في
عباءته التي كان فيها وذلك بعد أن ولي خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا
سيد من سادات اليمن وعظيم عظمائهم

قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت حدود المملكة
الإسلامية من الجهة الشرقية في السند والصغد وبلاد الترك ومن الجهة الشمالية
في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية في أفريقيا والأندلس
وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام . حياً مع الخوارج وحيناً مع
حطاب الخلافة من بنى على ولم يخل عصر خليفة أموي من حروب داخلية إلا عصر
الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فهي إذاً دولة حرية . ولا جرم إن امتاز
فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود إلى حومة الوغى واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة
وحسن التدبير في الحرب وهانحن نورد على أسماءكم جملة من أولئك الأفراد العظام
الذين ماز ذكرهم

من اشتهر بالشرق

(١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان عليه تاماً بمكيدة الحرب والاحتراس من

غوانلها واشتهر في حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعا مقداما لا يردّه شيء عن قصده واشتهر بحروبه بما وراء النهر فإنه دّوخ تلك البلاد وأذلّ أهلها وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وقد الدولة صالح خدمتهم

(٣) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فإنه ردّ أهلها إلى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سببا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة في جبين الدولة الأموية

(٤) أسد بن عبد الله القسري اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهاجوه هبة لم يهابوها قائداً قبله وأخذ عليه عصيته لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سببا في فساد أهل خراسان واختلافهم (٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي اشتهر بحروبه في بلاد السند على عهد الحجاج ابن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل في أول خلافة سليمان بن عبد الملك واشتهر في أرمينية وأذربيجان

(٦) محمد بن مروان بن الحكم الأدي كان شجاعا أيدا وعزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح في شمال أرمينية وأذربيجان (٧) مروان بن محمد بن مروان كان كأيّه بطلامقداما سدّ ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن

(٨) الجراح بن عبد الله الحكمي وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر واشتهر في بلاد الروم

(٩) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيرا من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ولم يكن بنو أمية في أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر

(١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان رئيسا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة

(١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامى مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا ما يقود الشوأتى والصوائف إلى البلاد الرومية واشتهر في الغرب وأفريقية

(١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في إحدى تلك الوقائع

(١٣ و ١٤) موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الأندلس وأدخلا الإسلام في قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد . لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لحقوا . ولم تكن همة الدولة الإسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم أسطول قوى في البحر الأيضا المتوسط يحمى البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمون من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر في الدولة الأموية تقل مهارة وإقداما عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فإن الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها : وكانت السيادة في الجيوش للعصر العربي لأن الدولة كانت عربية محضة لم يتازعها دخيل ولذلك لم تر من بين قوادها أعجما

القضاء والاحكام

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلى تسجيل الاحكام قال محمد بن يوسف الكندي في كتاب الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم إلى سايم بن عنز (قاضى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان) في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتابا بقرضائه وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقرضائه

ولم يكن القضاة يتقيدون برأى فى أحكامهم إذ لم تدون إذ ذاك أحكام قهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم أو إلى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين فى أمصارهم

كان توبة بن نمر لا يملك شيئاً إلا وهبه ووصل به لإخوانه وأفضل به عليهم فلما ولى القضاء بمصر فى عهد هشام بن عبد الملك كان يرى أن يحجر على السفه والمبذرف رفيع غلام من حمير لا تحوى يده شيئاً إلا وهبه وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يا بنى قال فن يحجر عليك أيها القاضى والله ما تبلغ فى أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفه بعد . فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاء من الحرية فى اختيار الآراء التى يقضون بها . وأحياناً يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم فى الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي قاضى مصر من قبل عمر بن عبد العزيز إليه يسأله فى أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب إليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فإذا وقعت الحدود بين أهل الشرك فى الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التى يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضاً فى الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد ولم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شىء يقضى به قضائهم أو يحمل مجتهدى كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين : لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته فى الحكم بما يراه

وكان يضاف إلى القضاة مراقبة أموال يتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج قاضى مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فإنه ضمن هريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده . قال الكندى جرى الأمر على ذلك

وكانوا يتولون الأحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر فى زمن هشام بن عبد الملك وإنما كانت الأحباس فى أيدي أهلها وفى أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء

والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من التواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الاحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر

كان اختيار القضاة يرجع غالباً إلى أمراء الأمصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضى حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى في اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم إلى مدا لا يدي إلى السحت رأيت أن عبدالرحمن بن مجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص ويبت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ومن القصص مئتي دينار ورزقه في بيت المال مئتي دينار وكان عطاؤه مئتي دينار وكانت جائزته مئتي دينار فكان يأخذ ألف دينار في السنة . ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه أشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء ليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الارزاق كانت تصرف مقدماً

الدواوين

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند

(٢) ديوان الخراج

(٣) ديوان الرسائل : فأما ديوان الجند فإنه مذكور في تاريخ العرب لأن عمر إنما

كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش : وكان هذا الديوان يحصر جند كل إمارة وأعطياتهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فإنه كان بالعراق باللغة الفارسية وبلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث لم يكن المسلمون قد همروا بعد فيه فلما ولي الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده

زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي
بجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية تخف على قلبه شعر صالح بذلك
تخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفى
ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لا تظن ذلك هو أحوج إلى
منى إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى
العربية لحولته قال فقول منه أسطرأ حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث
إليه الحجاج بطيبيه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل
زاذان في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج
بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في إرضائه فنقله من الفارسية
إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى
عليهم وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب : وأما
ديوان الشام فإن الذي نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب
الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذي يليه في عهد معاوية سرجون بن
منصور الرومي ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد
ابن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزارى من حصص هكذا نقلت هذه الدواوين
الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى
وكان ديوان الخراج ينظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية)
وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال
في الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذي تختم فيه الكتب بعد أن
تكتب وكاد الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليتهم من يكون يده الخاتم
خاتم الخلافة وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين
للخلفاء ومن أشهر منهم عبد الحميد بن يحيى قال الطبري وكان من البلاغة في مكان مكين
ومما اختير له من الشعر

ترحل ما ليس بالقافل واعقب ما ليس بالزائل

ظاهني على الخلف النازل ولهني على السلف الراحل
أبكي على ذا وأبكي لنا بكاء مولحة ناكل
تبكي من ابن لها قاطع وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن هبة لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبي وردت التي عن الباطل

السكة الإسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله إلى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأن عثمان ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقرئ فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلباً للإحسان إلى الرعية فلو جعلت أنت هياراً دون ذلك العيار ازدادت به الرعية مرفقاً ومضت لك به السنة الصالحة ف ضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطاً تنقص حبة أو حبتين و ضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجرى مجرى الدراهم و ضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً

فلما قام عبدالله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً فدورها عبدالله ونقش على أحد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل و ضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاهما الناس في العطاء

فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكاييل و ضرب الدنانير والدراهم في سنة ٧٦ فجعل

وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا لإلحبة بالشامى وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى والقيراط أربع حبات وكل دائق قيراطان ونصف وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن أضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فإن فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيعها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئا : وجعل عبد الملك الذهب الذى ضربه دنانير على المثقال الشامى وهى الميالة الوازنة كل مائة دينارين أى أن النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و ١٠٢

ثم قال وكان الذى ضرب الدرام رجلا يهوديا من تيماء يقال له سمير نسبت الدرام إذ ذاك السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب وقيل لها الدرام الدرام بها وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها فى كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه آدم وأن تضرب الدرام فى الآفاق على السكة الإسلامية وتحمل إليه أولا فأولا وقدر فى كل مائة درهم عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهى الدرهم قل هو الله أحد وعلى الآخر لا إله إلا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب فى الطرق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفى الطرق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذى دعا عبد الملك إلى ذلك أنه نظر للأمة وقال هذه الدرام السوداء والواقية والطبرية والعنق تبقى مع الدهر وقد جاء فى الزكاة أن فى كل مئتين أوفى كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق أن جعلتها كلها على مكان السود العظام مئتين عددا أن يكون قد نقص من الزكاة وأن عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مئتين عددا وجبت الزكاة فيها فإن فيه حيفا وشططا على أرباب الأموال فأتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا إضرار بالناس مع موافقة ماسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ما عزم عليه عهد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دوانيق لجمعها وكل زيادة الأكبر على نقص الأصغر وجعلها درهمين متساويين زنه كل منهما ستة دوانيق سوى واعتبر المثقال أيضا فإذا هو لم

يبرح في آباد الدهر موفى محدوداً كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فإنها سبعة مثاقيل سوى فأفرد ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والأمر على ما تقدم فلم يزل من بعده في خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر إلى أن استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعاً للبال أمر خالد ابن عبد الله القسرى في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار إلى وزن سبعة وأن يبطل السكك من كل بلد إلا واسطاً فضرب الدراهم بواسطة فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسطة وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بجران إلى أن قتل

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا في الجزء الأخير من الخطط وضريحات نافعة في أمر الدرهم والدينار في الدول الإسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير في الأزمنة المختلفة : وحقق أن المثلقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثلقال سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التي يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٢٨ ر ٣٢ جراماً فسدسها الذي هو المثلقال ٧٢ ر ٤ جرام وهناك مثلقال آخر يقل عن هذا شيئاً يسيراً إذ أن وزنه ٦٩ ر ٤ وأن الدينار كان وزنه ٢٥٠ ر ٤

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوى وزن القطعة ذات القرشين تقريباً لأن وزنها ٥٠ ر ٣ جرامات وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين ٩٤ ر ٢ ج وبين ٧٠ ر ٢ ج وأن وزن الدينار كان يساوى في الوزن نصف الجنيه الإنكليزي لأن وزنه ٢٥ ر ٤ وقد كان وزن الدينار في عهد عبد الملك يتراوح بين ٦٤ ر ٤ ج وبين ٥٢ ر ٤ ج

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقوداً إسلامية لأن هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالى وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس في الدرهم والدينار

أسباب السقوط

استولى البيت الأموى على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لاعتراض رضا ومشورة فإن

معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم الأمر ورضى الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته . كان في الأمة العربية طريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والأولون ذوو أقدام وبسالة الأداء لا يقف في أوجههم عما أرادوا شيء إلا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبیت هذا شأنه لا يصفوله الملك إلا إذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التي تشايعه والتي سلت سيوفها لنصرته فإذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ما تهب تلك القلوب من مكانها فإن صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى وإن صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما ألان شكيمنهم وأسكن ثورتهم فكان يفضي عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه إليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجدد مزحاً ومن العداء تقرباً ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجائعة ويقرب القلوب النافرة إلا أنه نرى فيما زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي بن أبي طالب على منابر الأمصار فكان هو وأمرأؤه يفعلون ذلك حتى جعل النيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضاً وربما رد الجريء منهم على الأمير وجهاً لوجه فيكون من وراء ذلك إسراف في العقوبة يزيد الأمر شراً كما حصل من زيادة في أمر حجر الكندي

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموي كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم إلى ما لا يحتاج إليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيراً فظهرت لهم جملة عيوب كانت سبباً في القضاء عليهم وهي :

أولاً — ولاية العهد

كانت ولاية العهد سبباً كبيراً في انشقاق البيت الأموي وذلك أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين بل أحدهما الآخر : وأول من فعل ذلك مروان فإنه ولي عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده

إلى ابنه الوليد وهزل أخيه لولا أن ساعد القضاء المحتوم ب وفاة عبدالعزيز فلم تبدأ الأزيمة ولكنه هو الذى رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولى ابنه فعاجله القضاء وأخرا الأمر إلى حين لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبدالعزيز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد خفيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم : أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشام أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد : وكان كثير من كبار القواد وذوى الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بمالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذيراً لخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التى كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخذت منهم الأنفاس وجعلتهم أثراً بعد عين

ثانياً - إحياء العصية الجاهلية التى جاء الإسلام معضياً لآثارها ومشدداً فى النعى عليها لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصيات التى أضعفت قوامها فى جاهليتهم

وقد نبض عرقها فى أول الدولة مروانية فإن وقعة مرج راهط التى تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التى كانت تشايح الضحاك و كلب التى كانت تشايح مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبي وقال فى ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهياً يسرت غسان لحسم وكلبا
والسكسين رجلاً غلباً وطيثاً نأبأه إلا ضرباً
والقين تمشى فى الحديد نكباً ومن تنوخ مشمخراً صعباً
لا يأخذون الملك إلا غصباً وإن دنت قيس فقل لأقرباً

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذى أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد للحرب المختار بن عبيد الثقفى كاد يستأصل فإن عمر بن الحباب السلى كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لحواه ونادى بالثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله

وكثير من جند الشام : في الوقت الذي نبض فيه عرق العصية الجاهلية بين قيس واليمن في الشام كان ما هو أشد منه في خراسان فإن مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبي صفرة وهو أزدي والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلا من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبيد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن اكتب لي عهداً على خراسان فكتب له فزار ابن خازم إلى مرو وملكها وأخرج من بهام ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار إليهم ابن خازم واقتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم إلى مرو

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لأنهم من مضر فلما صفت له خراسان جنابهم فتسكروا له وكانت بينهم مواقع

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة : اليمن وربيعة وقيس هيلان وتمر وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الاخيران مضر

كانت الأمراء تساعد على إنماء هذه الروح الخبيثة فإذا ولي يمان رفع رأس أهل اليمن واستعملهم عمالاً على الأمصار فإذا تلاء مضرى عكس الأمر وانتقم من سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن إلا إذا كانت حروب خارجية مع الصفد أو الترك فهناك تجتمع كلتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فإذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الأموي الذين يطالبونه بما في يده مما ليس له فإن أبا مسلم الخراساني اتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم ولا نفي أن لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يداً كبرى في إنماء هذه العصية فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجريز وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة ويتجلى له ذلك : لا شيء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف

فنتسبى إلى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فإذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فإن الكلمة تحقق على الأمة ويقرب منها الفناء فإن الجهل يجعل روح العصبية موجهة إلى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءهما لم ينتج من إنماء العصبية الجاهلية في قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموي وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان في عهد الدولة العباسية مما سيأتى تفصيله إن شاء الله

(ثالثاً) تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم في أمر قوادهم وذوى الأثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الأول والثانى فإن سليمان ابن عبد الملك لما ولى بعد أن كان الوليد يريد إخراجه من ولاية العهد عمد إلى كل من كان هواه مع الوليد فأذلهم وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجارهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما إلا أنهما من صنائع الحجاج الذى كان هواه مع الوليد ولا يميل إلى سليمان . ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لأنه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج بخاف وهالع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبى صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بنى أمية والأمة الإسلامية وكان بعد هذا شيء كثير ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية ومن يؤازرهم

الأمة التى ينتقم خلفها من عمال السلف لأنهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأى ولا ينضج فيها عمل تتر عليها الأمم سائرة إلى امام وهى فى موقفها ولها حركة لاتبتين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزية إلا صادقتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر إذ تساق إلى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه - لما كانت أكثر الذين دونوا فى عهد بنى أمية قد عاشوا فى الدولة العباسية استحسننا أن نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية

﴿ تم الجزء الثانى من المحاضرات ﴾

فهرست

الجزء الثاني من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

صفحة	صفحة
٤٣ أسباب مقتل عثمان	٢ المحاضرة الرابعة والعشرون
٤٧ بيت عثمان	الفتوح في بلاد الروم
علي بن أبي طالب	٣ الواقعة بمرج الروم
كيف انتخب	فتح حصص
٤٩ ترجمة علي	٥ فتح بيت المقدس
أول خطبة له	٨ المحاضرة الخامسة والعشرون
٥١ أول أعمال علي	٨ القضاء في عهد عمر
اضطراب الحبل	١١ سيرة عمر في عماله
٥٦ المحاضرة التاسعة والعشرون	١٣ معاملته للرعية
واقعة الجمل	١٥ عفته عن مال المسلمين
٦٠ أمر صفين	١٧ ميله للاستشارة وقبوله للأصح
٦٦ المحاضرة الثلاثون	١٨ رأى عمر في الاجتماعات
عقد التحكيم	الوصف على الجملة
٦٨ نتائج التحكيم	١٩ بيت عمر
٧١ اجتماع الحكيم	٢٠ المحاضرة السادسة والعشرون
٧٩ المحاضرة الحادية والثلاثون	مقتل عمر
مقتل علي	٢٢ عثمان بن عفان . كيف انتخب
٨٠ بيت علي	٢٤ ترجمة عثمان
٨١ صفة علي وأخلاقه	٢٥ أول قضية نظر فيها
٨٤ الحسن بن علي	٢٦ كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار
٨٥ الخلافة	أول خطبة له
٨٧ القضاء	٢٧ الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان
٨٨ قيادة الجيوش	الفتوح في عهد عثمان
٩٠ الخراج وجبايته	٣٠ المحاضرة السابعة والعشرون
٩٣ الصدقات	الأحوال الداخلية
العشور	٤٣ المحاضرة الثامنة والعشرون

صفحة	صفحة
١٢٤ بيت يزيد	٩٤ النقود
١٣٥ المحاضرة الخامسة والثلاثون	٩٥ الحج
معاوية الثاني - عبدالله بن الزبير	الصلاة
١٣٦ حال الشام	العلم والتعليم
١٣٨ ترجمة مروان	٩٦ المحاضرة الثانية والثلاثون
عبدالمك	الدولة الاموية
١٤٧ الحجاج بالعراق	٩٩ معاوية بن أبي سفيان
١٤٩ المحاضرة السادسة والثلاثون	ترجمته
الخوارج	١٠٠ طريق انتخابه
١٦١ المحاضرة السابعة والثلاثون	حال الامة عند استلام معاوية الامر
بناء الكعبة	١٠٢ زياد بن أبي سفيان
الاحوال الخارجية	١٠٨ المحاضرة الثالثة والثلاثون
الفتوح في الشرق	١١٤ الفتوح في عهد معاوية
١٦٣ الفتوح في الشمال	١١٦ البيعة ليزيد بولاية العهد
١٦٤ الحج	١٢٠ مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم
السكة الإسلامية	مدة الخلفاء الراشدين
١٦٥ ولاية العهد	١٢٢ بيت معاوية
وفاة عبدالمك	وفاة معاوية
بيت عبدالمك	١٢٣ المحاضرة الرابعة والثلاثون
١٦٦ صفة عبدالمك	يزيد الاول
١٦٧ الوليد الاول	١٢٤ كيفية انتخابه
الحال في عهد الوليد	حادثة الحسين
الإصلاح الداخلي	١٣٠ وقعة الحرة
١٧٠ المحاضرة الثامنة والثلاثون	١٣٢ حصار مكة
الفتوح في عهد الوليد	١٣٣ الفتوح في عهد يزيد
١٧٥ ولاية العهد	١٣٤ وفاة يزيد

صفحة	صفحة
١٩٨ في الحجاز	١٧٦ وفاة الحجاج
١٩٩ ولاية العهد	١٧٧ وفاة الوليد بن عبد الملك
وفاة هشام	سليمان
صفته	١٧٩ الفتوح في عهده
الوليد الثاني	١٨٠ ولاية العهد
٢٠٢ يزيد الثالث	وفاة سليمان
٢٠٤ مروان الثاني	المحاصرة التاسعة والثلاثون
٢٠٩ الخاتمة	عمر بن عبد العزيز
مدينة الإسلام في عهد الدولة	١٨٧ وفاة عمر
الأموية	يزيد الثاني
الخلافة الإسلامية	١٩٠ ولاية العهد
٢١٠ الانتخاب والبيعة	وفاة يزيد
٢١١ إدارة البلاد	المحاضرة الأربعون
٢١٣ قيادة الجنود	هشام
٢١٥ القضاء والأحكام	الأحوال الداخلية في عهده
٢١٧ الدواوين	في العراق والشرق
٢١٩ السكة الإسلامية	١٩٥ في أرمينية وأذربيجان
٢٢١ أسباب السقوط	١٩٧ في الشمال

(تمت)

تتبع
١٩٥٨

To: www.al-mostafa.com